النيابة عن الأمة في فروض الكفاية

أ.د. محمد زكي خضر

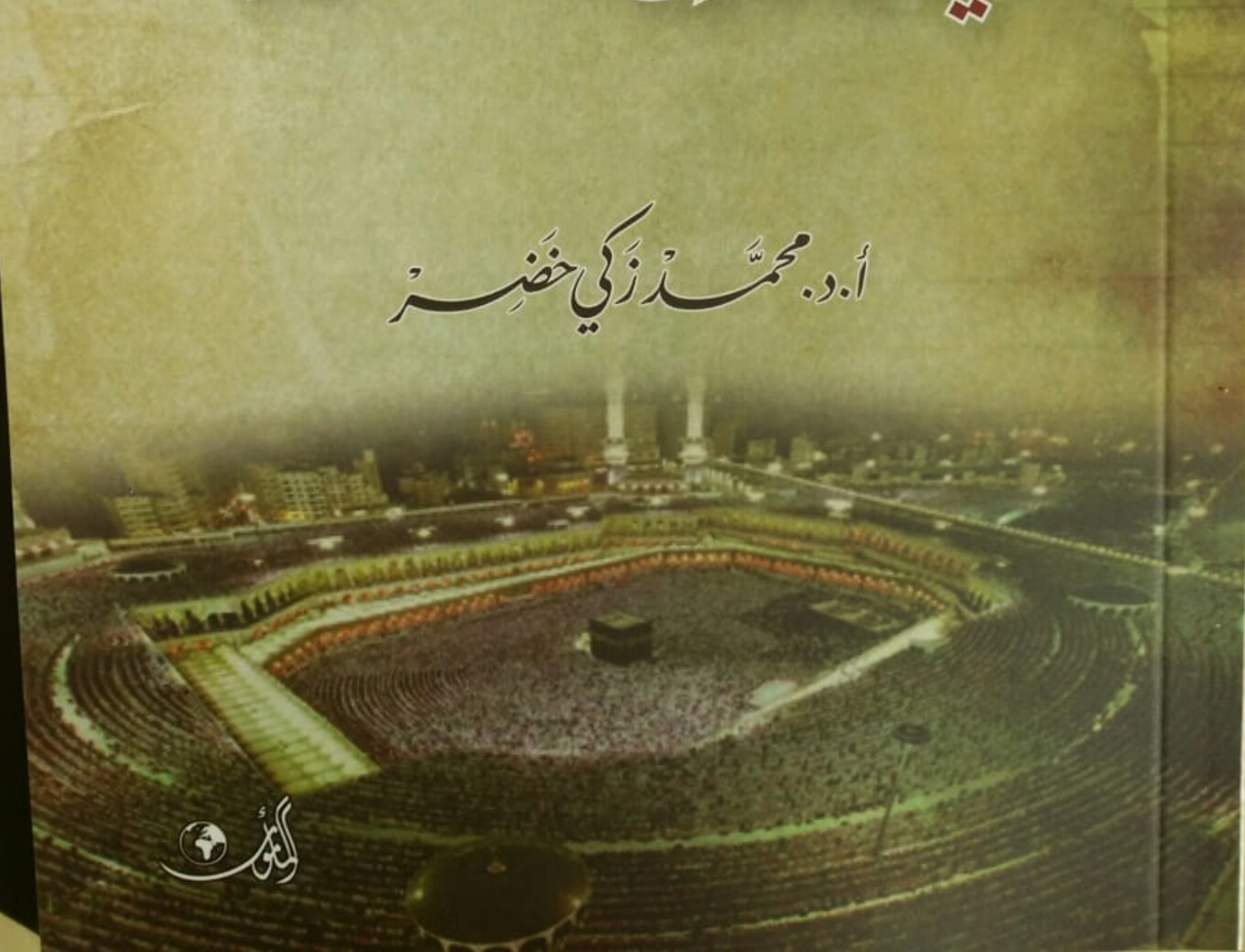

المنهل

النِّيابَةُ عَنِ الأُمَّةِ
فِي فُروضِ الكِفَايَةِ

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ- ٢٠٢٠م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٩/١٠/٥٥١٥)

٢٦٥.٢١

خضر، محمد زكي

النيابة عن الأمة في فروض الكفاية/ محمد زكي خضر_ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٩ .

(٨٤) ص

ر.إ: (٢٠١٩/١٠/٥٥١٥).

الواصفات: / فروض الكفاية // الفروض// الأحكام الشرعية/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

(ردمـــك) ٩٧٨-٩٩٥٧-٧٧-٥٢٤-٧

جميع الحقوق محفوظة

❖ لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق.

دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٣٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

النِّيابَةُ عِنِ الأُمَّةِ

فِي فُروضِ الكِفَايَةِ

أ.د. محمد زكي خضر

دار المأمون للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن سار علىٰ هديه إلىٰ يوم الدين.

وبعد، فهذا كتاب مختصر يبين جوانب من فروض الكفاية وكيف يمكن أن يرفع أداؤها الإثم عن الأمة كلّها حينما ينوب عن الأمة فرد أو جماعة أو أفراد بأداء فرض الكفاية في موضع معين أو حادثة معينة أو مجلس معين.

والكتاب لا يستقصي كل فروض الكفاية بل يعطي أمثلة، لعل القارئ يستحضر أمثلة أخرىٰ في حياته. ورغم أن الكلام عن فروض الكفاية، لكنه يمكن أن يتعدىٰ ذلك إلىٰ أداء سنن أو نوافل اندرست أو تبرز الحاجة إليها. فمن يقوم بإحيائها أو القيام بها ابتداءً، فهو يقوم بعمل كفائي نيابة عن الأمة أو المجتمع. هذا بالإضافة إلىٰ ضرورات أو حاجات برزت الحاجة إليها تحتاجها الأمة.

يحوي هذا الكتاب ستة أبواب: الباب الأول يُعرَّف فيه فرض الكفاية، والباب الثاني يعطي أمثلة علىٰ فروض الكفاية بتكليف من ولي الأمر، والباب الثالث يعطي أمثلة علىٰ فرض الكفاية بتكليف من الجماعة والباب الرابع يستعرض أمثلة علىٰ فرض الكفاية بتطوع من الفرد، والباب الخامس يحوي أمثلة لفروض كفاية يقوم بها العلماء. أما الباب السادس فيعطي أفكارًا عن فروض كفاية أخرىٰ.

أدعو الله تعالى أن يهيء لهذه الأمة من ينوب عنها في أداء كل فرض قلّ من يقوم به وكل واجب أو سنة اندرست، أدعو الله أن يهيء من يقوم بإحيائها. والله ولي التوفيق.

المؤلف

عمان – الأردن

ذي القعدة ١٤٤٠هـ/ تموز ٢٠١٩م

الباب الأول
تعريف فرض الكفاية

يُعرَّف فرض الكفاية بأنه الفرض الذي إن قام به البعض سقط عن الكل، وإن لم يقم به أحد أثم الجميع. ويضرب على ذلك مثال صلاة الجنازة التي على المسلمين القيام بها تجاه الميت، فإن قام بها بعضهم سقطت عن الآخرين.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى[1]: "فَمَا حَقِيقَةُ فَرْضِ الْكِفَايَةِ؟ أَهُوَ فَرْضٌ عَلَى الْجَمِيعِ ثُمَّ يَسْقُطُ الْفَرْضُ بِفِعْلِ الْبَعْضِ، أَوْ هُوَ فَرْضٌ عَلَى وَاحِدٍ لَا بِعَيْنِهِ ... أَوْ هُوَ وَاجِبٌ عَلَى مَنْ حَضَرَ، وَتَعَيَّنَ، أَعْنِي: حَضَرَ الْجِنَازَةَ أَوْ الْمُنْكَرَ، أَمَّا مَنْ لَمْ يَتَعَيَّنْ فَهُوَ نَدْبٌ فِي حَقِّهِ؟ قُلْنَا: الصَّحِيحُ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الْأَوَّلُ، وَهُوَ عُمُومُ الْفَرْضِيَّةِ، ... وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ لَوْ فَعَلُوا بِأَجْمَعِهِمْ نَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ثَوَابَ الْفَرْضِ، وَإِنْ امْتَنَعُوا عَمَّ الْحَرَجُ الْجَمِيعَ، .... أَمَّا الْإِيجَابُ عَلَى وَاحِدٍ لَا بِعَيْنِهِ فَمُحَالٌ، لِأَنَّ الْمُكَلَّفَ يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مُكَلَّفٌ، وَإِذَا أُبْهِمَ الْوُجُوبُ تَعَذَّرَ الِامْتِثَالُ". كما يقول: "أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك

إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله وأما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه".

ويتضح من هذا التعريف أنه فرض على جميع من حضر أو علم ويستطيع القيام به، ويسقط إذا فعله بعضهم، وينال الأجر كلّ من فعله. أما إذا لم يقم به أحد، أثم الجميع.

وأوضح مثال على ذلك دعوة الله تعالى المؤمنين لكي يتخصص بعضهم في التفقه في الدين، ومن ثم الرجوع إلى قومهم لينذروهم فيحذروا الوقوع في الخطايا، ويأمرونهم بما تعلَّموه من فقه. قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1]. فالمسلمون مدعوون لكي يرسلوا من بينهم من يتفقه في الدين وينذرهم إذا انتهى من ذلك. فإن لم يفعلوا أثم من كان مستطيعًا ولم يفعل. وإن فعل بعضهم سقط الإثم عن الجميع.

تنقسم الأحكام الشرعية التي تحيط بالفرد المسلم وبالأسرة المسلمة وبالجماعة المسلمة وتَحكم حياتهم كلّها إلى خمسة أحكام[2]: فرض ومستحب وحرام ومكروه ومباح. فالفرض ما أمَرَ الله به أمرًا جازمًا، مَن فعله استحق الثواب ومَن تركه استحق العقاب. وقد قسّم العلماء الفرض إلى أقسام كثيرة، من أهمها أن الفرض

فرضان: فرض عين وفرض كفاية، ففرض العين هو ما يتعين على شخص معين بذاته بحسب قدرته وبحسب استطاعته. فالصلاة فرض عين على كل مسلم والصيام والزكاة كذلك ضمن المحددات الشرعية، والحج لمن استطاع إليه سبيلا وبرّ الوالدين وصلة الأرحام وقول الصدق وتجنب الكذب والأمانة، كلّ هذه فروض عينية لا يجوز لشخص أن يتخلى عنها، ولكن فروض الكفاية لا تتعلق بشخص بعينه، وإنَّما تتعلق بالأمة في مجموعها أو بجماعة معينة. فهناك فروض يجب أن تقوم بها الأمة، الأمة مسؤولة عنها بالتضامن، فلا يوجد فرد معين أو مجموعة أفراد معينين مطالَبون بهذه الفروض الكفائية ولكن الأمة كلها مطالبة بذلك. ومعنى كلمة «كفاية» أي يكفي فيه البعض عن البعض، بحيث إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، ومعنى «قام به البعض» أي قام عدد كافٍ يلبي الحاجة ويغطي المطلوب ويسد الثغرة، فلو افترضنا إن الأمة محتاجة إلى ألف مهندس فقام ثمانمائة، فهذا العدد لا يسد الكفاية، فلا بد أن يكتمل العدد الذي تحتاجه الأمة. ومثل ذلك إن كانوا محتاجين إلى طبيب مختص بطب العيون أو خبير في حقل معين، بل وكل فرع تحتاجه الأمة. ولابد أن تغطى كلّ الحاجات المطلوبة وتسد الثغرات. ففرض الكفاية يتعلق بما تحتاج إليه الأمة في مجموعها حتى تكون أمة قوية مرهوبة سيدة في أرضها، مستقلة في قرارها وحياتها، قادرة على الدفاع عن نفسها، مؤدية لرسالتها، لأن الأمة الإسلامية كما قال ربعي بن عامر أمام رستم قائد قوات الفرس: (إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)، فأمة ذات رسالة كهذه لابد أن تتحقق بها مقومات روحية

ومادية وعقلية وعاطفية تستطيع أن تؤدي بها رسالتها العالمية. وينطبق ذلك اليوم علىٰ كل دولة مستقلة، أو علىٰ أهل حيّ أو قرية أو منتسبي هيئة أو دائرة مكلفين بمهام ضرورية، إن كان فرض الكفاية يعنيهم.

في الأبواب التالية سنتطرق إلىٰ مختلف أنواع فروض الكفاية قدر العلاقة بالجهة التي تقوم بها.

الباب الثاني
القيام بفرض الكفاية بتكليف من وليّ الأمر

في هذا الباب ندرج أمثلة على القيام بفروض الكفاية بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو وليّ أمر المسلمين حينئذ أو بأمر من الخليفة من بعده أبي بكر، ومن جاء بعده من الخلفاء أو كل مسؤول ومنها يتبين بأن وليّ أمر المسلمين أو القائد أو المدير المسؤول، له أن يختار من يقوم بفرض الكفاية كما سيتبين:

الحاجة إلى مجاهد يكون قدوة في الحرب

عرض رسول الله ﷺ سيفًا يوم أحد، فقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام أبو دجانة سماك بن خرشة، فقال: يا رسول الله أنا آخذه بحقه، قال فأعطاه إياه فخرج واتبعته (هذا قول راوي الحديث الزبير بن العوام رضي الله عنه) فجعل لا يمر بشيء إلا أفراه وهتكه حتى أتى نسوة في سفح الجبل ومعهن هند وهي تقول:

نحن بنات طارق ... نمشي على النمارق

والمسك في المفارق ... إن تُقبلوا نعانق

أو تدبِروا نفارق ... فراق غير وامق

قال (أبو دجانة): فحملت عليها فنادت بالصحراء فلم يجبها أحد فانصرفتُ عنها، فقلت له (الزبير بن العوام) كل صنيعك رأيته فأعجبني غير أنك لم تقتل المرأة! قال فإنها نادت فلم يجبها أحد، فكرهت أن أضرب بسيف رسول الله ﷺ امرأة لا ناصر لها[٣]. فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عرض السيف على من يأخذه

بحقه، وقد فهم أبو دجانة حق ذلك السيف أن يضرب به من قاتل المسلمين، وأدرك أن امرأة معزولة عن الرجال، تحرّض على القتال، ليست مشمولة بالضرب بالسيف بحقّ. وهذا مثال على عمق الفهم لهذا الدين دون غلوٍ أو تقصير.

وفي إعطاء السيف لمن يأخذه بحقه إشارة إلى الحاجة إلى فرض كفاية تبرز الحاجة لمن يقوم بها، فأخذه أبو دجانة فقام بحقه خير قيام.

تعلم السريانية

عن زيد بن ثابت ﷺ، قال: قال لي رسول الله: «أتُحسن السريانية؟» قلت: لا، ثم قال: «فتعلّمها فإنه تأتينا كتب»، قال: فتعلمتُها في سبعة عشر يومًا.

قال الأعمش كانت تأتيه كتب لا يشتهى ان يطّلع عليها إلاّ من يثق به[٤].

عند انتقال الدعوة الإسلامية من مرحلة المحلية إلى المرحلة العالمية، برزت الحاجة إلى أمور منها تعلّم لغات أخرى كالسريانية، لتيسير التواصل دون لبس أو سوء فهم في الترجمة. وهكذا في كل زمان، تبرز حاجة الأمة لتعلّم علوم جديدة تحتاج من يتعلمها ويخدم الأمة فيها. وذلك فرض كفاية يجب القيام به.

الحاجة لمن يأتي بخبر الأعداء في معركة الأحزاب

عن حذيفة بن اليمان ﷺ[٥]، قال لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافّون قعود، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منّا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشدّ ظلمة ولا أشدّ ريحًا في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحد منّا أصبعه. فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله ﷺ ويقولون ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾[٦]، فما يستأذن

أحد منهم إلاّ أذن له، فينسلون ونحن ثلاثمئة أو نحو ذلك، إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتىٰ مرّ عليَّ وما علي جِنّة (أي وقاية) من العدو ولا من البرد إلاّ مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي، فأتاني وأنا جاثٍ علىٰ ركبتيّ فقال «من هذا؟» فقلت حذيفة قال: «حذيفة؟» فتقاصرت إلىٰ الأرض، فقلت: بلىٰ يا رسول الله كراهية أن أقوم، قال: «قم»، فقمت، فقال: «إنه كان في القوم خبر فأتني بخبر القوم»، قال وأنا من أشد القوم فزعًا وأشدهم قِرًا (بردًا)، فخرجت، فقال رسول الله: «اللّهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته»، قال: فوالله ما خلق الله فزعًا ولا قِرًا في جوفي إلاّ خرج من جوفي، فما أجد منه شيئًا، فلما وليت، قال: «يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئًا حتىٰ تأتيني»، فخرجت، حتىٰ إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده علىٰ النار ويمسح خاصرته ويقول الرحيل الرحيل ثم دخلت العسكر، فإذا أدنىٰ الناس مني بنو عامر يقولون يا آل عامر: الرحيل الرحيل، لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز شبرًا فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضربهم، ثم خرجت نحو النبي ﷺ فلما انتصفت بي الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارسًا معتمين فقالوا: أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم، فرجعت إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبرته، وهو مشتمل في شملة يصلّي، وكان إذا حزبه أمر صلّىٰ، فأخبرته خبر القوم أني تركتهم يترحلون وأنزل الله في تلك الحادثة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾[٧].

وفي رواية فقال ابو سفيان: يا معشر قريش لينظر كل امرئ من يجالس (خوفًا من الدخلاء والجواسيس)، فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي بجانبي وقلت: من أنت يا رجل؟ فقال مرتبكًا: أنا فلان بن فلان!.

يلاحظ حرص النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم علىٰ معرفة أسرار العدو، وعلىٰ معرفته بالرجال واختيار كل شخص لما يصلح له. فحذيفة بن اليمان ﷺ (وكان كاتم سرّ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم)، حينما سمع من أبي سفيان مقالته خوفًا من الدخلاء، لم ينتظر حتىٰ يسأله من هو بجانبه عن هويته، فبادر هو بسؤال من بجانبه. ولم يخطر ببال ذلك الشخص أن يسأل طالما أن السائل قد نفّذ ما طلبه أبو سفيان، فهو أبعد ما يكون عن الاتهام. كما أنه عمل بوصية رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم حين أوصاه أن لا يحدث في القوم شيئًا فقد حدثته نفسه أن يرشق أبا سفيان بسهم حين شاهده أمام النار، لكنه تذكر وصية رسول الله له، وهكذا تحتاج الأمة اليوم إلىٰ اجتماع التقوىٰ والعلم والوعي. فقد جمع ﷺ عنصر الذكاء بأخذ زمام المبادرة والتصرف بثقة تبعد الشك، إضافة للتقوىٰ اللذين عرفه بهما رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم عند اختياره، والالتزام الصارم بالوصية. وهكذا يجب اختيار أفضل من يمكن أن يقوم بفرض الكفاية وإعطائه التعليمات الواضحة ليقوم به.

زيد بن ثابت وجمع القرآن في زمن أبي بكر الصديق ﷺ

كان زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ممن يكتب الوحيّ قال: أرسل إليّ أبو بكر ﷺ مقتل أهل اليمامة[٨] وعنده عُمر ﷺ، فقال أبو بكر: إن عُمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس وإني أخشىٰ أن يستحر القتل بالقرّاء في المواطن،

فيذهب كثير من القرآن إلاّ أن تجمعوه، وإني لأرىٰ أن تجمع القرآن، قال أبو بكر: قلت لعمر كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله، فقال: عمر هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتىٰ شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأىٰ عمر، قال: زيد بن ثابت وعمر عنده جالس لا يتكلم فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله، فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلّفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله؟ فقال أبو بكر: هو والله خير. فلم أزل أراجعه حتىٰ شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر[٩].

وهكذا كان اختيار أبي بكر لزيد رضي الله عنهما، هو اختيار من رأىٰ أنه أفضل من يقوم بالمهمة بعد أن أدرك واقتنع بأهمية تلك المهمة الطارئة رغم أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم لم يقم بها في حياته، لكنها أصبحت فرض كفاية عندما استحر القتل في القراء في موقعة اليمامة. وهكذا جمع القرآن في صحف أودعت عند أم المؤمنين حفصة ﵂.

جمع القرآن في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه

قال البخاري رحمه الله[١٠]: قدم حذيفة بين اليمان علىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنهما وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرِك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارىٰ. فأرسل عثمان ﵁ إلىٰ حفصة رضي الله عنها (وكان عندها نسخ القرآن الكريم التي جمعت في زمن أبي بكر ﵁): أن أرسلي

إلينا بالصحف فننسخها ثم نردّها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن حارثة وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحرث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القريشين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

إن ما قام به عثمان ﷺ، كان نتيجة ما أخبره به حذيفة بن اليمان ﷺ من الخوف من تحريف القرآن دون وجود مرجع يرجع إليه المسلمون في شتى بقاع الأرض التي دخلها الإسلام، هو نيابة عن الأمة ابتغاء وحدتها وابتغاء وجود مرجع موحد من نصوص القرآن الكريم دون تحريف أو تبديل وقد غدا ذلك فرض كفاية على الأمة. وقد أوكل هذه المهمة لفريق كتابة المصاحف الذين قاموا بالمهمة نيابة عن الأمة. ثم بعد ذلك أرسلها إلى المدن الرئيسة في ذلك الوقت وهي البصرة والكوفة والشام والمدينة المنورة ومكة المكرمة. وأبقى للخليفة نسخة. وهو بذلك قام بعمل هام يخدم وحدة الأمة للرجوع إلى نسخ موثقة من المصحف الشريف، موزعة على الأمصار كي يرجع إليها الناس وذلك من حفظ الله تعالى لكتابه حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

الإمام مالك وتأليف الموطأ

في موسم الحج، طلب الخليفة **أبي جعفر المنصور** من الإمام مالك بن أنس ﷺ[(١١)]، تأليف كتاب في **الفقه** يجمع الشتات وينظم التأليف - بمعايير علمية حدّدها

له – قائلا: «يا أبا عبد الله ضع الفقه ودوّن منه كتبًا وتجنّب شدائد **عبد الله بن عمر**، ورُخص **عبد الله بن عباس**، وشوارِد **عبد الله بن مسعود**، واقصد إلى أواسط الأمور، وما اجتمع إليه الأئمة والصحابة، لنحمل الناس إن شاء الله على عملك وكتبك، ونبثها في الأمصار، ونعهد إليهم ألاّ يخالفوها». لكنّه بعد تأليفه كتاب الموطأ، رفض طلب المنصور أن يُلزم الناس على كتابه، فلم يوافقه على ذلك، وذلك من تمام علمه وإنصافه، وقال: «إن الناس قد جمعوا واطّلعوا على أشياء لم نطلع عليها»[١٢].

فالإمام مالك أطاع المنصور في طلبه الذي اعتبر فرض كفاية حفظًا للسنة، لكنه نبّهه على أمر فيه مصلحة الأمة. فليس جمع الأمة على كتاب واحد غير القرآن، هو في مصلحتها. ثم أوضح سبب ذلك، فالصحابة تفرقوا في بقاع البلاد المختلفة، وكلّ منهم لديه علم لم يبلغ غيره. لذلك فإن إلزام المسلمين بكتاب واحد فيه ضياع لكثير من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولفقه الصحابة.

مقاومة وفضح الأفكار المنحرفة – الإمام الغزالي وتأليف كتاب فضائح الباطنية مثالاً

إنتشر عدد من الفرق الباطنية في الفترة التي سبقت حياة الإمام الغزالي وفي زمنه، فكلّف الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧ – ٥١٢هـ) الإمام الغزالي بتأليف كتاب للرّد على الباطنية. فقام بتأليف كتاب فضائح الباطنية[١٣]. وفيه شرح أصول نشأة الفرق الباطنية كالقرامطة والإسماعيلية والخرمية والبابكية، وغيرها من الفرق التي شاع أمرها في تلك الفترة او ما سبقها. وقد شرح في الكتاب عقائد هذه الفرق

وأسباب قيامهم بدعواتهم وطرق انتشارها ووسائلها في تضليل الناس لغرض الانتماء إليها، وحيلهم وحججهم واستدلالاتهم وتأويلاتهم في مجال عقائدهم، وما ينبني عليها من الخروج على دولة الخلافة. كما شرح تمسكهم بالعصمة والإمامة، ورد عليهم ردًا مفصلاً مشيرًا إلى أن إمامة المسلمين في زمنه هي للخليفة العباسي.

وهكذا كان تصدّي الإمام الغزالي للباطنية هو فرض كفاية نيابة على الأمة في تبيان الفرق الباطلة والتحذير منها، بأمر من الخليفة في زمنه.

إن مواجهة الحجة بالحجة خاصة في العقائد والأفكار هو الجواب الأمثل للردّ على الجماعات ذات الأفكار والعقائد الزائغة، وليس القمع والظلم. فذلك يؤدي إلى مزيد من الغلو والتطرف والعنف. وهكذا فإن الإمام الغزالي قام بفرض كفاية في وقته لردء أخطار تلك الجماعات.

النظر في حاجات الآمة - المأمون والترجمة مثالاً

شهد عصر المأمون (ولد سنة ١٧٠هـ وتوفي سنة ٢١٨هـ) نهضة حضارية كبيرة[١٤]، فقد كان المأمون محبًا للعلم والأدب وكان شاعرًا وعالمًا وأديبًا، يحبّ الشعر ويجالس الشعراء ويشجعهم (رغم خطأه في الأخذ بآراء المعتزلة وإلزام الناس بدعوى خلق القرآن)، وكان يعجب بالبلاغة والأدب والعلوم. أرسل المأمون البعوث إلى القسطنطينية والإسكندرية وإنطاكية وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان، وأجرى الأرزاق على طائفة من المترجمين لنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية، وأنشأ مجمعًا علميًا في بغداد، ومرصدين أحدهما في بغداد والآخر في تدمر، وأمر الفلكيين برصد حركات الكواكب، كما أمر برسم خريطة جغرافية كبيرة

للعالم. وكان لتشجيعه حركة الترجمة أكبر الأثر في ازدهارها في عهده، فظهر عدد كبير من العلماء ممن قاموا بدور مهم في نقل العلوم والفنون والآداب والفلسفة إلى العربية، والإفادة منها. ومن هؤلاء حنين بن إسحاق الطبيب البارع الذي ألّف العديد من المؤلفات الطبية، ويحيى بن ماسويه الذي كان يشرف على «بيت الحكمة» في بغداد وكان يؤلّف بالسريانية والعربية، كما كان متمكنًا من اليونانية، وميخائيل بن ماسويه وكان طبيب المأمون الخاص، وكان يثق بعلمه فلا يشرب دواءً إلاّ من تركيبه.

لقد كان عمل المأمون فاتحة للتقدم العلمي في العالم الإسلامي، فبرز العلماء في الفلك والطب والكيمياء والرياضيات وبنيت المراصد والمستشفيات واستمر ذلك عدة قرون، ثم انتقلت تلك الثروة العلمية إلى أوربا، من خلال الحروب الصليبية ومن خلال البعثات الأوربية إلى الأندلس، حيث كانت النواة للتقدم فيها بعد ذلك. لقد كان البدء بهذا العمل فرض كفاية أفادت منه الأمة قرونًا من الزمن. ففروض الكفاية لا تنحصر في الأمور الدينية البحتة، بل كل أمر ضروري لمصلحة الأمة في دينها ودنياها هو فرض كفاية.

الخلاصة:

لا شك أن وليّ أمر المسلمين يلمس كثيرًا من الواجبات التي ينبغي القيام بها أكثر مما يراها الأفراد. لذلك فإن عليه في هذه الحالة أن يجد من هو الأصلح للقيام بذلك الواجب كي يكلّفه بتلك المهمة.

واليوم لا يقصد بوليّ الأمر شخصًا بعينه، بل يمكن أن يكون وزيرًا أو مديرًا أو مسؤولاً عن حفظ مهمة معينة، وقد تكون لجنة أو فريق عمل أو مجموعة أفراد

مكلّفين بمهمة معينة. ففي هذه الأحوال يجب عليهم إن لمسوا الحاجة إلى القيام بمهمّة معينة، فعليهم اختيار أفضل من يناسبها وتكليفه بالقيام بها بعد توفير الإمكانات المادية والمساعدين والخبرات التي يحتاجها للقيام بتلك المهمة على أفضل وجه. وقد يكون التكليف بتكوين فريق عمل أو استحداث وزارة أو مؤسسة أو تعديل نمط عمل.

وهكذا فإن فروض الكفاية اليوم واسعة جدًا، وتشمل جوانب الحياة المعاصرة كلّها. وتبعًا لذلك لا بدّ لمن يتولّى أمرًا من الأمور العامة أن يفتش عما يراد العمل عليه لمصلحة الأمة والمجتمع وعليه أن يطلع على تجارب الأمم الأخرى ثم عليه أن يحرص على أن يختار أفضل من يقوم بالمهام الضرورية بأمانة وحرص وكفاءة.

الباب الثالث
القيام بفرض كفاية باختيار الجماعة

بيعة المسلمين للصديق ﷺ خليفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

عن عبدَ الله بنَ عبَّاسٍ قال: جلَس عمر بن الخطاب ﷺ على المنبرِ يوم الجمعة فقال: بَيْنا نحنُ في منزلِ رسولِ الله ﷺ (بعد وفاته) إذ رجلٌ يُنادي مِن وراءِ الجدارِ: اخرُجْ إليَّ يا ابنَ الخطَّابِ فقُلْتُ: إليك عنِّي فإنَّا مشاغيلُ عنك فقال: إنَّه قد حدَث أمرٌ لا بدَّ منك فيه إنَّ الأنصارَ قد اجتمَعوا في سَقيفةِ بني ساعدةَ، فأدرِكوهم قبْلَ أنْ يُحدِثوا أمرًا، فيكونَ بينكم وبينهم فيه حربٌ. فقُلْتُ لأبي بكرٍ: انطلِقْ بنا إلى إخوانِنا هؤلاء مِن الأنصارِ، فانطلَقْنا نؤُمُّهم، فلقيَنا أبو عُبيدةَ بنُ الجرَّاحِ. فأخَذ أبو بكرٍ بيدِه، فمشى بيني وبينه حتَّى إذا دنَوْنا منهم لقيَنا رجلانِ صالحانِ فذكَرا الَّذي صنَع القومُ. وقالا: أين تُريدونَ يا معشرَ المهاجرينَ؟ فقُلْتُ: نُريدُ إخوانَنا مِن هؤلاء الأنصارِ. قالا: لا عليكم ألَّا تقرَبوهم. يا معشرَ المهاجرينَ اقضوا أمرَكم فقُلْتُ: واللهِ لنأتيَنَّهم فانطلَقْنا، حتَّى أتَيْناهم فإذا هم في سَقيفةِ بني ساعدةَ. فإذا بينَ أظهُرِهم رجلٌ مزَّمِّلٌ فقُلْتُ: مَن هذا؟ قالوا: سعدُ بنُ عُبادةَ، قُلْتُ: فما له؟ قالوا: هو وجِعٌ، فلمَّا جلَسْنا تكلَّم خطيبُ الأنصارِ، فأثنى على اللهِ بما هو أهلُه ثمَّ قال: أمَّا بعدُ فنحنُ أنصارُ اللهِ وكتيبةُ الإسلامِ وأنتم يا معشرَ المهاجرينَ رهطٌ منَّا وقد دفَّت دافَّةٌ مِن قومِكم. قال عمرُ: وإذا هم يُريدونَ أنْ يختزِلونا مِن أصلِنا ويحطُّوا بنا [منه] قال: فلمَّا قضى مقالتَه أرَدْتُ أنْ أتكلَّمَ وكُنْتُ قد زوَّرْتُ مقالةً أعجَبْتني أُريدُ أنْ أقومَ بها بينَ يدَيْ أبي بكرٍ.

وكُنْتُ أُداري مِن أبي بكرٍ بعضَ الحدَّةِ. فلمَّا أرَدْتُ أنْ أتكلَّمَ، قال أبو بكرٍ: علىٰ رِسْلِك، فكرِهْتُ أنْ أُغضِبَه فتكلَّم أبو بكرٍ وهو كان أحلَمَ منِّي وأوقَرَ. واللهِ ما ترَك مِن كلمةٍ أعجَبتْني في تزويري إلَّا تكلَّم بمثلِها أو أفضَلَ في بديهتِه، حتَّىٰ سكَت. فتشهَّد أبو بكرٍ وأثنىٰ علىٰ اللهِ بما هو أهلُه ثمَّ قال: أمَّا بعدُ أيُّها الأنصارُ، فما ذكَرْتُم فيكم مِن خيرٍ فأنتم أهلُه. ولن تعرِفَ العربُ هذا الأمرَ إلَّا لهذا الحيِّ مِن قريشٍ. هم أوسطُ العربِ نسبًا ودارًا، وقد رضيتُ لكم أحدَ هذينِ الرَّجلينِ، فبايِعوا أيَّهما شِئْتُم. فأخَذ بيدي وبيدِ أبي عُبيدةَ بنِ الجرَّاحِ. فلم أكرَهْ مِن مقالتِه غيرَها. كان واللهِ أنْ أُقدَّمَ فتُضرَبَ عُنقي لا يُقرِّبُني ذلك إلىٰ إثمٍ، أحَبَّ إليَّ مِن أنْ أُؤمَّرَ علىٰ قومٍ فيهم أبو بكرٍ، إلَّا أنْ تغيَّرَ نفسي عندَ الموتِ. فلمَّا قضىٰ أبو بكرٍ مقالتَه قال قائلٌ مِن الأنصارِ: أنا جُذَيْلُها المُحكَّكُ وعُذَيْقُها المرجَّبُ، منَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ، يا معشرَ قريشٍ. قال عمرُ: فكثُر اللَّغطُ وارتفَعتِ الأصواتُ حتَّىٰ أشفَقْتُ الاختلافَ. قُلْتُ: ابسُطْ يدَك يا أبا بكرٍ، فبسَط أبو بكرٍ يدَه فبايَعْتُه وبايَعه المهاجرونَ والأنصارُ، .... وإنَّا واللهِ ما رأَينا فيما حضَر مِن أمرِنا أمرًا أقوىٰ مِن بيعةِ أبي بكرٍ، فخشينا إنْ فارَقْنا القومَ قبْلَ أنْ تكونَ بيعةٌ أنْ يُحدِثوا بعدَنا بيعةً، فإمَّا أنْ نُبايِعَهم علىٰ ما لا نرضىٰ وإمَّا أنْ نُخالِفَهم فيكونَ فسادًا. فلا يغتَرَّنَّ امرؤٌ أنْ يقولَ: إنَّ بيعةَ أبي بكرٍ كانت فَلْتةً فتمَّتْ، فقد كانت فَلْتةً. ولكنَّ اللهَ وقىٰ شرَّها[١٥].

إن بيعة المسلمين لأبي بكر ﷺ، نتيجة هذه المباحثات التي كان لا بدّ منها، كانت وسيلة مناسبة لذلك العصر وفي ذلك الظرف القاسي بعد وفاة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم. ورغم قيام الصحابة الذين حضروا السقيفة بذلك مبدئيًا، إلاّ أن

البيعة اكتملت بعد بيعة عامة الصحابة في المسجد النبوي. فقد قام بمهمة النيابة عن الأمة نفر منهم أولاّ ثم تابعهم علىٰ ذلك عامة المسلمين. وبذلك قام فريق من المسلمين بفرض كفاية هو ترشيح قائد لهم في ذلك الظرف العصيب، ثم حظيت تلك النيابة بموافقة الأمة.

اختيار المسلمين خالد بن الوليد في معركة مؤتة

عن ابن شهاب قال: بعث النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم جيشًا إلىٰ مؤتة، وأمَّر عليهم زيد بن حارثة، فان أصيب زيد، فجعفر بن ابي طالب أميرهم، فإن أصيب جعفر، فعبد الله بن رواحة أميرهم. فانطلقوا حتىٰ لقوا ابن أبي سبرة الغساني بمؤتة، وبها جموع من نصارىٰ العرب والروم، وبها تنوخ وبهرام. فأغلق ابن أبي سبرة دون المسلمين الحصن ثلاثة أيام ثم خرجوا، فالتقوا علىٰ زرع أخضر، فاقتتلوا قتالاً شديدًا وأخذ اللواء زيد ابن حارثة فقُتل، ثم أخذه جعفر فقُتل، ثم أخذه ابن رواحة فقُتل، ثم اصطلح المسلمون بعد أمراء رسول الله ﷺ علىٰ خالد بن الوليد، فهزم الله العدو، وأظهر المسلمين.

وكان رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قد نعىٰ للصحابة بالمدينة زيدًا وجعفرًا وابن رواحة قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب» . وعيناه تذرفان: «حتىٰ أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتىٰ فتح الله عليهم»[١٦].

إن الحاجة إلىٰ قائدٍ لأية مجموعة ضرورية. وفي هذه الحادثة، كان لا بدّ للمسلمين من قائد بعد استشهاد القادة الثلاثة رضي الله عنهم. وكأن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، مع علمه مسبقًا باستشهاد القادة الثلاثة، فإنه لم يختر لهم رابعًا،

وكأنه ترك لهم فريضةً عليهم أن يقوموا بها في مثل تلك الحالة. وترك لهم من يختارونه من بينهم ممن يرون كفاءته بعد فجعتهم بفقدان ثلاثة قادة، واحدًا بعد الآخر. وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمّروا أحدهم»[١٧]. فهم قد قاموا بفرض كفاية كان لا بد منها بتعيين قائد لهم في تلك الظروف الحرجة.

الخلاصة

تكثر الحاجة إلى اختيار المجتمع من يقوم بمهام قيادية. والقاعدة الرئيسية في ذلك أن من يطلب الولاية لا يولّى.

فعن أبي موسى الأشعري ﷺ، قال: دَخَلْتُ علَى النبيِّ ﷺ أنَا ورَجُلَانِ مِن قَوْمِي، فَقالَ أحَدُ الرَّجُلَيْنِ: أمِّرْنَا يا رَسولَ اللهِ، وقالَ الآخَرُ مِثْلَهُ، فَقالَ: «إنَّا لا نُوَلِّي هذا مَن سَألَهُ، ولَا مَن حَرَصَ عليه»[١٨].

فالتراضي على من يقود الجماعة أمر مهم، والوصول إلى القيادة هو ليس صراع للوصول إلى السلطة.

ويتضح مما سبق أن على الجماعة واجب اختيار قائد لها إذا خلى منصب القيادة دون وجود آلية لاختيار من يحل محله. فإن وجدت تلك الآلية المتفق عليها مسبقًا، فعلى الجماعة الالتزام بها والمضي قدمًا بتنفيذ بنودها على أفضل وجه. وفي هذه الحالة فإن فرض الكفاية يقع على عاتق الجماعة للوصول إلى اختيار قيادتها، وتمكينه من القيام بواجبه. وقد تكون بداية اختيار القيادة ترشيحًا من واحد أو أكثر من أفراد الجماعة وليس من المعني نفسه كما سبق أعلاه. وربما يكون هناك تدارس ومناقشات للوصول إلى القرار المناسب وتنفيذه.

الباب الرابع
القيام بفرض الكفاية بتطوع من فرد
مؤمن آل فرعون

من الامثلة على فروض الكفاية قصة مؤمن آل فرعون[١٩]:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ

وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ۞.

في هذا المثال نرىٰ أن فرعون ومن حوله، خاضوا في ذمّ موسىٰ عليه السلام، وبدأوا بمناقشة كيفية التخلص منه أو قتله. وفي هذه الحالة قام رجل منهم كان يخفي إيمانه، بالدفاع عن موسىٰ عليه السلام بل وتوضيح أسس دعوته. وهذا هو فرض كفاية في ذلك الظرف، قام به هذا المؤمن، فسدّ بذلك فرض كفاية عن الأمة.

تطوّع يوسف عليه السلام لإدارة خزين الدولة

في قصة يوسف عليه السلام: قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾[٢٠].

فالملك بعد ثبوت براءة يوسف عليه السلام مما وُجّه إليه من تهم، وحسن إجابته علىٰ

تأويل رؤيا الملك دون أن يطلب إخراجه من السجن، أمر بأن يُحضروا يوسف عليه السلام ليكرمه ويجعله مستشارًا أو نديمًا له. ويخطئ من يظن أن يوسف عليه السلام طلب الإمارة، فإن كلام الملك فيه عرض على يوسف أن يساعده في أمر ما، فتطوع يوسف عليه السلام، باختيار ما هو أنفع للأمة، وما بإمكانه أن يقوم به بأكمل وجه. وهنا يتبين تطوعه للقيام بما هو فرض كفاية كما رآها هو: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٢١].

أنس بن النضر في معركة أحد

من الأمثلة على تطوع الفرد للقيام بفرض كفاية ما ورد[٢٢]عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: غاب عمّي أنس بن النضر عن قتال بدر، فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين. ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ، الجنّة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد. قال: سعد فما استطعت، يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنه برمح أو رمية بسهم. ووجدناه قد قتل وقد مَثَّل به المشركون، فما عرفه أحد إلاّ أخته ببنانه. قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾[٢٣].

فهذا الصحابي الجليل وجد، حين انكشف المسلمين في معركة أحد، أن المسلمين

بحاجة إلى من يثبتهم ويضرب لهم المثل في الإقدام، فقام بهذا الفرض الكفائي في ذلك الظرف العصيب.

البراء بن مالك في معركة اليمامة

زحف المسلمون إلى المشركين يوم اليمامة، حتى ألجأوهم إلى حديقة فيها عدو الله مسيلمة. فقال البراء بن مالك: يا معشر المسلمين ألقوني إليهم. فاحتُمل، حتى إذا أشرف على الجدار، اقتحم فقاتلهم على حديقة حتى فتحها المسلمون (ففتح الباب) ودخل عليهم المسلمون فقتل الله مسيلمة.

وهنا البراء بن مالك ﷺ، يتطوع للقيام بفرض كفاية، وهو اللجوء إلى وسيلة ما للدخول على حديقة مسيلمة، والقضاء على فتنته. فتطوع البراء بن مالك بالقيام بهذا العمل الشجاع. وقد جُرِح يومئذ بضعة وثمانين جرحاً، ولذلك أقام خالد بن الوليد عليه شهراً يداوي جراحه[٢٤].

حراسة أبي بكر الصديق لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أثناء الهجرة

عندما قرر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الهجرة، اختار أبا بكر الصديق صاحبًا في السفر. فقد اختار من الصحابة من يكون له مرافقًا ومؤنسًا ومدافعًا عنه فقام ﷺ بالواجب خير قيام فقد ورد أنه: لما هاجر النبي ﷺ خرج ومعه أبو بكر ﷺ، فأخذا طريق ثور. فجعل أبو بكر يمشي خلفه، ويمشي أمامه. فقال له النبي: ما لك؟ فقال: يا رسول الله أخاف ان تؤتى من خلفك فأتأخر وأخاف أن تؤتى من أمامك فأتقدم[٢٥].

وهنا يقوم ابو بكر ﷺ بالقيام بحراسة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم حرصًا كي لا يؤتىٰ من أية جهة. وواضح أن فرض الكفاية هذا بالحرص علىٰ أن لا يصل أحد بسوء إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، لم يكن هناك من يستطيع القيام به إلاّ أبا بكر ﷺ، وهو قد أدرك ذلك فقام به خير قيام.

أصابت امرأة وأخطأ عمر

صعد عمر بن الخطاب[٢٦] ﷺ منبر رسول الله صلىٰ الله عليه وأله وسلم، ثم قال: أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء! وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه وإنما الصَّدُقات فيما بينهم أربع مائة درهم فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوىٰ عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها. فلا أعرفنَّ ما زاد رجلٌ في صداق امرأة علىٰ أربع مئة درهم، ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين نهيتَ النَّاس أن يزيدوا في مهر النساء علىٰ أربع مائة درهم؟ قال: نعم، فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾[٢٧] فقال: اللهمَّ غفراً، كلّ النَّاس أفقه من عمر، ثم رجع فركب المنبر، فقال: أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن علىٰ أربع مئة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب. قال أبو يعلىٰ: وأظنه قال: فمن طابت نفسه فليفعل.

تقويم خطأ الحاكم فرض كفاية. وقد قامت به تلك المرأة في زمن عمر رضي الله

عنه، وهو رضي بذلك فورًا، فألغىٰ ما قد أمر به.

الذب عن عرض المسلم الغائب

عن أسماء بنت يزيد ﵂ قالت: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «مَن ذبَّ عن عِرضِ أخيهِ بالغيبةِ، كانَ حقًّا علَىٰ اللهِ أن يُعْتِقَهُ منَ النَّارِ»[٢٨].

حكىٰ كعبَ بنَ مالك ﵁ عن تخلفه في غزوة تبوك[٢٩] فقال: تجهَّز رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه، وطفِقتُ أغدو لكي أتجهزَ معهم، فأرجعْ ولم أقضِ شيئًا، وأقول في نفسي: أنا قادرٌ علىٰ ذلك، إذا أردتُ. فلم يزلْ ذلك يتمادىٰ بي حتىٰ استمرَّ بالناس الجِدُّ. فأصبح رسولُ الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئًا. ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقضِ شيئًا. فلم يزلْ ذلك يتمادَىٰ بي حتىٰ أسرعوا وتفارط الغزوُ. فهممتُ أن أرتحلَ فأدركَهم، فيا ليتني فعلتُ. ثم لم يُقَدَّرْ ذلك لي. فطفقتُ، إذا خرجتُ في الناس، بعد خروج رسولِ الله ﷺ، يُحزِنُني أني لا أرىٰ لي أُسوةً إلاّ رجلًا مغموصًا عليه في النِّفاقِ، أو رجلًا ممن عذَر اللهُ من الضُّعفاءِ. ولم يَذكرْني رسولُ الله ﷺ حتىٰ بلغ تبوكًا فقال: وهو جالسٌ في القومِ بتبوكَ «ما فعل كعبُ بنُ مالكٍ؟» قال رجلٌ من بني سلمةَ: يا رسولَ الله! حبَسه بُرداه والنظرُ في عَطِفَيه (وفي هذا ذمّ له). فقال له معاذُ بنُ جبلٍ: بئسَ ما قلتَ. واللهِ يا رسولَ الله، ما علِمْنا عليه إلاّ خيرًا. فسكت رسولُ الله ﷺ - وبقية القصة معروفة إذ نزلت آية الثلاثة الذين خلفوا في سورة التوبة[٣٠][٣١].

فهنا نجد معاذ بن جبل ﷺ، يشهد أمام رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم بأن كعب بن مالك رجل صالح في غيابه، ويذب عنه كلمة السوء التي قيلت فيه. فهو قد قام بسنة تشبه فرض الكفاية بالذب عن أخيه.

ورغم أن الذبّ عن الغائب ليس فرض كفاية بل يقع في مجال السنة أو المستحب، بحسب الحال، لأن معرفة الناس فيما بينهم لا تقع حدّ اليقين بل هو غالب الظن. وهذه الأمثال التي نسوقها تصلح سواء كان الموضوع واجبًا واضحًا أو سنةً أو أمرًا مستحبًا، فلمن قام به أجر النيابة عن غيره في فرض الكفاية أو السنة أو النافلة. فالمثال هنا لإيضاح سعة أعمال الخير التي ينبغي القيام بها سواء كانت فرضًا أو سنةً أو نافلةً.

الدفاع عن مسلم بظهر الغيب: الفرزدق وهشام بن عبد الملك مثالاً

لما حج هشام بن عبد الملك، في أيام أبيه، طاف بالبيت، وجهد أن يصل إلىٰ الحجر الأسود ليستلمه فلم يقدر علىٰ ذلك، لكثرة الزحام (فلم يكن هناك حرس يوسعوا له الطريق ليطوف بسهولة)، فنُصب له كرسي وجلس عليه ينظر إلىٰ الناس، ومعه جماعة من أعيان أهل الشأم. فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله تعالىٰ عنهم[٣٢]، وكان من أجمل الناس وجهاً وأطيبهم أرجًا فطاف بالبيت، فلما انتهىٰ إلىٰ الحجر، تنحىٰ له الناس حتىٰ استلم الحجر، فقال رجل من أهل الشام لهشام: من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟. فقال هشام: لا أعرفه، مخافة أن يُرغِّب فيه أهل الشام، وكان الفرزدق حاضرًا فقال أنا أعرفه: فقال الشامي من هو يا أبا الفوارس؟ فقال الفرزدق:

هـذا ابـن خـير عبـاد الله كلهـم ... هـذا التقـي النقـي الطـاهر العلـم
هـذا الـذي تعـرف البطحـاء وطأتـه ... والبيـت يعرفـه والحـل والحـرم
إذا رأتـه قـريش قـال قائلهـا ... إلى مكـارم هـذا ينتهـي الكـرم
ينمـى إلى ذروة العـز التـي قصـرت ... عـن نيلهـا عـرب الإسـلام والعجـم
يكـاد يمسـكه عرفـان راحتـه ... ركـن الحطـيم إذا مـا جـاء يسـتلم
في كفـه خيـزران ريحـه عبـق ... مـن كـف أروع في عرنينـه شـمم
يغضـي حيـاء ويغفـى مـن مهابتـه ... فـما يكلّـم إلاّ حـين يبتسـم
ينشـق نـور الهـدى مـن نـور غرتـه ... كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم
مشـتقة مـن رسـول الله نبعتـه ... طابـت عنـاصره والخـيم والشـيم
هـذا ابـن فاطمـة إن كنـت جاهلـه ... بجـده أنبيـاء الله قـد ختمـوا
الله شرفـه قـدمًا وعظّمـه ... جـرى بـذاك لـه في لوحـه القلـم
ولـيس قولـك مـن هـذا بضـائره ... العرب تعـرف مـن أنكـرت والعجـم
كلتـا يديـه غيـاث عـمّ نفعهـما ... يسـتوكفان ولا يعروهمـا عـدم
سـهل الخليقـة لا تخشـى بـوادره ... يزينـه اثنـان حسـن الخلـق والشـيم
حمـال أثقـال أقـوام إذا اقترحـوا ... حلـوا الشـمائل يحلـو عنـده نعـم
مـا قـال لا قـطُّ إلاّ في تشـهده ... لـولا التشـهد كانـت لاؤه نعـم
عـمّ البريـة بالإحسـان فانقشـعت ... عنهـا الغيابـة والإمـلاق والعـدم
مـن معشـر حـبّهم ديـن وبغضـهمُ ... كفـرٌ وقـربهمُ منجـى ومعتصـم

إن عُـدّ أهـل التقـىٰ كـانوا أئمـتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل همُ
لا يسـتطيع جـواد بعـد غـايتهم ... ولا يـدانيهمُ قـوم وإن كرمـوا
هـم الغيـوث إذا مـا أزمـةٌ أزمـت ... والأسد أسد الشـرىٰ والبـأس محتـدم
لا يـنقص العسـر بسـطاً مـن أكفهـم ... سـيان ذلـك إن أثـروا وإن عـدموا
مقـدم بعـد ذكـر الله ذكـرهمُ ... في كـل بـدء ومختـوم بـه الكلـم
أي الخلائـق ليسـت في رقـابهم ... لأوليـة هـذا أولـه نعـم
مـن يعـرف الله يعـرف أوليـة ذا ... فالـدين مـن بيـت هـذا نالـه الأمـم

فغضب هشام علىٰ الفرزدق، وأمر بحبسه، فأنفذ له زين العابدين اثني عشر ألف درهم فردّها، وقال: مدحته لله تعالىٰ لا للعطاء؛ فأرسل إليه زين العابدين، وقال له: إنّا أهل بيت إذا وهبنا شيئًا لا نستعيده، والله ﷻ يعلم نيتك ويثيبك عليها، فشكر الله لك سعيك، فلما بلغته الرسالة قبلها[٣٣].

قصيدة الفرزدق ردّ علىٰ إنكار هشام لمعرفة علي زين العابدين ﷺ والتقليل من مكانته، وهذا الذب عن الاستهانة بمسلم بظهر الغيب هو من صنف ما مرّ من دفاع معاذ بن جبل عن كعب بن مالك رضي الله عنهما. وهنا الدفاع عن رجل من آل بيت النبوة، باب من أبواب النيابة عن الأمة في مثل هذه المواقف وما فيها من كلمة حق أمام سلطان جائر.

التطوع للقضاء على خرافة: أبو البركات المغربي في جزر المالديف مثالاً

قال ابن بطوطة في حديثه عن المالديف: حدثني الثقات من أهلها؛ كالفقيه عيسىٰ اليمني، والفقيه المعلم علي، والقاضي عبد الله، وجماعة سواهم: أنّ أهل هذه

الجزائر كانوا كفارًا، وكان يظهر لهم كل شهر عفريت من الجن يأتي من ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل، وكانت عادتهم أنهم إذا رأوه أخذوا جارية بِكرًا فزينوها وأدخلوها إلى بيت الأصنام، وكان مبنيًا على ضفة البحر، وله طاق يُنظر إليه منها، ويتركونها هنالك ليلة، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها ميتة مفتضة البكارة ولا يزالون كل شهر يقترعون بينهم، فمن أصابته القرعة أعطى بنته.

يتابع ابن بطوطة في كتابه: ثم إنه قدم عليهم مغربي يسمى بأبي البركات البربري، وكان حافظًا للقرآن العظيم، فنزل بدار عجوز منهم، فدخل عليها يومًا وقد جمعت أهلها وهن يبكين كأنهن في مأتم، فاستفهمهنّ عن شأنهن، فلم يفهمْنَ، فأُتـِيَ بترجمان فأخبره أن قرعة الشهر وقعت على العجوز، وليس لها إلاّ بنت واحدة يقتلها العفريت، فقال لها أبوالبركات: أنا أتوجّه عوضًا من بنتك بالليل، وكان أمرد الوجه، فاحتملوه تلك الليلة فأدخلوه إلى بيت الأصنام وهو متوضئ، وأقام يتلو القرآن، ثم ظهر له العفريت من النافذة، فاستمر يتلو، فلما اقترب منه وسمع القراءة، غاص في البحر، وأصبح المغربي وهو يتلو على حاله، فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها (ظنًا منهم أن العجوز وضعت بنتها هناك)، فوجدوا المغربي يتلو القرآن، فمضوا به إلى مَلِكِهم، وكان يسمى (شنورازة)، وأعلموه بخبره، فعجب منه، وعرض عليه المغربي الإسلام ورغّبه فيه، فقال له الملك: أقم عندنا إلى الشهر الآخر. فإن فعلت كذلك ونجوت من العفريت، أسلمت.

كان هذا الداعية سبباً في إسلام ملك الجزر «شَنورازة» وتسمّى باسم محمد بن عبد الله، وأسلم بعده كلّ أهل الجزر، فلم يبق أحدٌ من سكّانها إلاّ ودخل الإسلام. قام السلطان ببناء مسجد عرف باسمه. طلب الملك الملديفيُّ من أبي البركات أن

ينقش على لوحة تذكارًا يُشير فيه إلى تاريخ إسلام الملك على يده، وهي اللوحة التي لا زالت محفوظة إلى حد الآن، وتعتبر أقدم خط عربي في منطقة المحيط الهندي، وجعل ثلث ما يجبيه من سكان الجزر صدقة على أبناء السبيل، لأن إسلامهم كان عن طريقهم.

يتابع ابن بطوطة في كتابه: ثم أقام عندهم وشرح الله صدر الملك للإسلام، فأسلم قبل تمام الشهر، وأسلمَ أهله وأولاده وأهل دولته، ثم حُمِل المغربي لما دخل الشهر إلى بيت الأصنام، ولم يأتِ العفريت، وجعل يتلو حتى الصباح. وجاء السلطان والناس فوجدوه على حاله من التلاوة، فكسروا الأصنام، وهدموا بيتها، وأسلم أهلُ الجزيرة، وبعثوا إلى سائر الجزر، فأسلم أهلها، وأقام المغربي عندهم معظَّما وتمذهبوا بمذهبه؛ مذهب الإمام مالك رحمه الله، وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه[٣٤].

وسواء كان في القصة عفريت فعلاً، أو رجل من البشر، اعتاد أن يتمثل لهم بشكل عفريت، فالمغزى أن أبا البركات قام بفرض كفاية نيابة عن المسلمين بنية القضاء على خرافة، فكانت نتيجة عمله إسلام أهل تلك الأنحاء منذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا بل وحتى ما يشاء الله من أيام مستقبلاً.

الدكتور عبد الرحمن السميط والعمل الخيري في أفريقيا

كانت بداية رحلة الدكتور عبدالرحمن السميط رحمه الله[٣٥] مع العطف على الفقراء أنه لما كان طالباً في المرحلة الثانوية في الكويت، وكان يرى العمال الفقراء ينتظرون في الحرّ الشديد حتى تأتي المواصلات، فما كان منه إلاّ أنه جمع هو وأصدقاءه المال واشترى سيارة قديمة، وكان كل يوم يوصل هؤلاء العمال مجاناً رحمة بهم.

واستمرت معه عادته وحرصه على الوقوف إلى جانب المعوزين وأصحاب الحاجة، وحينما شعر بخطر المجاعة يهدد المسلمين في أفريقيا، وأدرك انتشار حملات التبشير التي تجتاح صفوف فقرائهم في أدغال القارة السوداء، آثر أن يترك عمله الطبي طواعية، ليجسد مشروعاً خيرياً رائداً في مواجهة غول الفقر، واستقطب معه فريقاً من المتطوعين، الذين انخرطوا في تدشين هذا المشروع الإنساني، الذي تتمثل معالمه في مداواة المرضى، وتضميد جراح المنكوبين، ومواساة الفقراء والمحتاجين، والمسح على رأس اليتيم، وإطعام الجائعين، وإغاثة الملهوفين. ونتج عن عمله أن أسلم على يديه أكثر من ١١ مليون شخص في إفريقيا وبنى ٥٧٠٠ مسجدًا وحفر ٩٥٠٠بئرًا وأنشأ ٨٦٠ مدرسة و٤ جامعات و(٢٠٤) مركزاً إسلامياً. وحينما نال جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام تبرع بمكافأتها لتكون نواة للوقف التعليمي لأبناء أفريقيا. ومن عائد هذا الوقف تلقت أعداد كبيرة من أبناء أفريقيا تعليمها في الجامعات.

تعرض في أفريقيا لمحاولات قتل مرات عديدة من قبل المليشيات المسلحة بسبب حضوره الطاغي في أوساط الفقراء والمحتاجين، ولاقى في سبيل ذلك صعوبات لا حصر لها. كما أصدر أربعة كتب عن أفريقيا، بالإضافة إلى العديد من البحوث وأوراق العمل ومئات المقالات التي نشرت في صحف متنوعة.

العمل الذي قام به المرحوم السميط، كان فرض كفاية نيابة عن الأمة، لكن السؤال هو هل كانت جهوده رحمه الله كافية؟ الجواب بالتأكيد كلا، فالحاجة في أفريقيا وأندونيسيا وبنغلاديش وبورما وغيرها هائلة وهي بحاجة إلى عدد كبير من أمثال السميط ومن زكوات أموال الموسرين في العالم الإسلامي.

الخلاصة

فرض الكفاية كما ورد في مقدمة الكتاب عن تعريف الامام الغزالي رحمه الله هو فريضة على الأمة، فإذا وجد الفرد أنه في الحال التي هو عليه لا يمكن أن يقوم بها أحد غيره، فالفرض عليه قد تحقق بوضوح تام، عند ذلك عليه القيام به. وهنا يجب أن تكون نيته خالصة لوجه الله لا من أجل سمعة أو جزاء دنيوي، فإنما الأعمال بالنيات. ومن خلصت نيته سيكون له عون من الله تعالى. إن التطوع لأعمال فروض الكفاية في كثير من الأحيان يحتاج إلى شجاعة خاصة لأنه غالبًا يكون فيه مخالفة للغالبية القاعدة من الناس.

الباب الخامس
قيام العلماء بفروض الكفاية

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[٣٦]. وسنورد بعضًا من مواقف العلماء أمام بعض الأمراء:

أسماء بنت أبي بكر والحجاج

أرسل الحجاج إلىٰ أسماءَ بنت أبي بكر ﷺ وعن أبيها بعد قتله إبنها عبدالله بن الزبير ﷺ[٣٧]، وتعليق جثته في مكة، فأبت أن تأتيه فأعاد إليها الرسول[٣٨]: لتأتنني أو لأبعثن إليك من يسحبك من قرونك فأبت، وقالت: والله لا آتيه حتىٰ يبعث إليّ من يسحبني بقروني.. فما كان من الحجاج إلاّ أن رضخ لصلابتها وانطلق حتىٰ دخل إليها، فقال: أرأيتِ كيف نصر الله الحق و أظهره؟ قالت: ربما أديل الباطل علىٰ الحق وأهله. قال: كيف رأيتني صنعت بعدو الله؟ قالت: أراك أفسدت علىٰ إبني دنياه وأفسد عليك آخرتك. قال: إن ابنك ألحد في هذا البيت وقد قال الله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[٣٩]، وقد أذاقه الله ذاك العذاب الأليم. قالت: كذبت كان أول مولود وُلد في الإسلام بالمدينة وسُرّ به رسول الله وحنّكه بيده وكبّر المسلمون يومئذ حتىٰ ارتّجت المدينة فرحًا به. وكان برًا بأبويه صوّامًا قوّامًا بكتاب الله، مُعظمًا لحُرم الله، مبغضًا لمن يعصىٰ الله – أما إن رسول الله حدثني أن في ثقيف كذابًا ومبيرًا (أىٰ سفاحًا قتالاً) فأما الكذاب فقد رأيناه (تعنىٰ المختار بن عبيد

الثقفي) وأما المبير فلا إخالك إلاّ إياه. فخرج الحجاج من عندها منكسرًا يتمنىٰ لو لم يكن لقيها بعد أن دخل عليها مزهوًا يريد أن يتشفىٰ.

فهذا الموقف من أسماء هو نيابة عن الأمة في رفضها السير إلىٰ أمير جائر وحين جاءها أسمعته كلمة الحق، كما ورد في حديث رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

الأوزاعي وعبد الله بن علي

لما دخل عبد الله بن علي دمشق، بعد أن أجلىٰ بني أميّة عنها، طلب الأوزاعي رحمه الله[٤٠]، فتغيّب عنه ثلاثة أيام، ثم حضر بين يديه، قال الأوزاعي: دخلت عليه وهو علىٰ سريره وفي يده خيزرانة والمسودة عن يمينه وشماله معهم السيوف مصلتة، والغمد والحديد، فسلّمت عليه فلم يردّ. نكت بتلك الخيزرانة التي في يده. ثم قال: يا أوزاعي ما ترىٰ فيما صنعناه من ازالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد والبلاد؟ أجهادًا ورباطًا هو؟

فقلت: أيها الأمير سمعت يحيىٰ بن سعيد الأنصاري التيمي يقول: سمعت محمد بن ابراهيم يقول سمعت علقمة بن وقاص يقول: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انما الأعمال بالنيّات وانما لكل امرىء ما نوىٰ، فمن كانت هجرته الىٰ الله ورسوله، فهجرته الىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته الىٰ دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الىٰ ما هاجر اليه»[٤١]. فنكت بالخيزرانة أشدّ ما ينكت وجعل من حوله يقبضون أيديهم علىٰ قبضات سيوفهم. ثم قال: يا أوزاعي ما تقول في دماء بني أميّة؟.

فقلت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ دم امرىء مسلم إلاّ بإحدىٰ ثلاث، النفس

بالنفس، والثيّب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة» (متفق عليه). فنكت أشد من ذلك.

ثم قال: ما تقول في أموالهم؟ قلت: ان كانت في أيديهم حرام فهي حرام عليك أيضًا، وان كانت حلال فلا تحل لك إلاّ بطريق شرعي. فنكت أشدّ ما ينكت قبل ذلك. انتظرت رأسي أن يسقط بين يدي، فأمرني بالانصراف. ثم قال: ألا نوليك القضاء؟ قلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقون عليّ في ذلك، إني أحب ما ابتدأوني به من الاحسان. فقال: كأنك تحب الانصراف؟ فقلت: إن من ورائي حرمًا وهنّ يحتجن القيام عليهنّ وسترهن وقلوبهن مشغولة بسببي.

فلما خرجت إذا برسوله من ورائي، وإذا معه مائتا دينار، فقال يقول لك الامير: استنفق هذه.

قال: فتصدقت بها، وإنما أخذتها خوفًا.

قال: وكان في تلك الايام الثلاثة صائمًا فيقال إن الامير لما بلغه ذلك عرض عليه الفطر عنده فأبى أن يفطر عنده[٤٢].

على العلماء عهد من الله أن يبلغوا دينه فيما يطيقون وان يعتزلوا الحكام الظلمة، فإن ابتلوا بموقف محرج مع الحكام أن يقولوا الحق ويصبروا على تبعاته، فذلك فرض كفاية عليهم نيابة عن الأمة. وهذا هو موقف العزيمة، فإن خاف البطش ووجد رخصة في بعض المواقف فلا بأس كما فعل الأوزاعي بأخذ المال ثم التصدق به.

سفيان الثوري والخليفة المهدي

قال الامام سفيان الثوري رحمه الله[٤٣]: لمّا حج المهدي قال: لا بدّ لي من سفيان،

فوضعوا لي الرصد حول البيت، فأخذوني بالليل. فلما مثلت بين يديه، قال لي: لأي شيء لا تأتينا فنستشيرك في أمرنا؟ فما أمرتنا من شيء صرنا اليه وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه. فقلت له: كم أنفقت في سفرك هذا؟ قال: لا أدري، لي أمناء ووكلاء. قلت: فما عذرك غدًا اذا وقفت بين يدي الله تعالىٰ فسألك عن ذلك؟ لكنّ عمر بن الخطاب ﷺ لما حج قال لغلامه كم أنفقت في سفرنا هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين ثمانية عشر دينارًا. فقال: ويحك أجحفنا بيت مال المسلمين.

وقد علمت ما حدثنا به منصور عن الأسود بن علقمة عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «ربّ متخوّض في مال الله ومال رسوله فيما شاءت نفسه له النار غدًا»، فيقول أبو عبيد الكاتب: أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا؟ قال سفيان: اسكت، انما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون[٤٤].

هنا يعطي سفيان الثوري الخليفة المهدي درسًا في الحفاظ علىٰ أموال المسلمين والإقتصاد في النفقات الخاصة، وهو بذلك يقوم بفرض كفاية في نصح إمام بذخ في الصرف علىٰ نفسه وحاشيته.

أبو حنيفة والمنصور

انتفض أهل الموصل علىٰ أبي جعفر المنصور، وقد اشترط المنصور عليهم أنهم إن انتفضوا تحل دماؤهم له، فجمع المنصور الفقهاء وفيهم الامام أبو حنيفة رحمه الله[٤٥].

فقال: أليس صحيحًا أنه ﷺ قال: «المؤمنون عند شروطهم»؟[٤٦] وأهل الموصل قد شرطوا ألاّ يخرجوا عليّ، وقد خرجوا علىٰ عاملي وقد حلّت دماؤهم.

فقال رجل منهم: يدك مبسوطة عليهم وقولك مقبول فيهم، فان عفوت فأنت أهل العفو وان عاقبت فبما يستحقون. فقال لأبي حنيفة: ما تقول أنت يا شيخ؟ ألسنا في خلافة نبوة وبيت أمان؟.

فأجاب: انهم شرطوا لك ما لا يملكون (وهو استحلال دمائهم)، وشرطت عليهم ما ليس لك، لأن دم المسلم لا يحل إلاّ بأحد معان ثلاث (يشير الامام أبي حنيفة رحمه الله تعالى الى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا باحدى ثلاث: الثيّب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة»[٤٧]).

فأمرهم المنصور بالقيام فتفرقوا فدعاه وحده. فقال: يا شيخ، القول ما قلت. انصرف إلى بلادك ولا تفتِ الناس بما هو شين على إمامك فتبسط أيدي الخوارج.

كانت فتوى أبي حنيفة رحمه الله في انتفاضة أهل الموصل قولة حق عند سلطان جائر يريد أن يبطش بهم. وهو بتلك الفتوى حقن دماء الكثير من المسلمين. وهذه الفتوى هي فرض كفاية قام بها أبو حنيفة.

المنذر بن سعيد مع عبد الرحمن الناصر

أقبل الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله على عمارة الزهراء أيّما اقبال، وأنفق من أموال الدولة في تشييدها وزخرفتها ما أنفق، وهي في حقيقة حالها مجموعة من القصور الفاخرة. وكان يشرف بنفسه على شؤون البناء والزخرفة حتى شغله ذلك ذات مرّة عن شهود صلاة الجمعة، وكان منذر بن سعيد رحمه الله[٤٨] يتولى خطبة الجمعة والقضاء، ورأى خروجًا من تبعة التقصير فيما أوجبه الله على العلماء أن يلقي على الخليفة الناصر درسًا بليغًا يحاسبه فيه على إسرافه وإنفاقه في مدينة الزهراء. ورأى

أن يكون ذلك علىٰ ملأ من الناس في المسجد الجامع بالزهراء، فلما كان يوم الجمعة اعتلىٰ المنبر والخليفة الناصر حاضر والمسجد غاصّ بالمصلين وابتدأ خطبته فقرأ قوله تعالىٰ: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾[٤٩]. ثم مضىٰ في ذم الاسراف علىٰ البناء بكل كلام جزل وقول شديد، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[٥٠] وراح يحذر وينذر ويحاسب حتىٰ ادّكر من حضر من الناس وخشعوا وأخذ الناصر من ذلك بأوفر نصيب، وقد علم أنه المقصود به، فبكىٰ وندم علىٰ تفريطه. غير أن الخليفة لم يحتمل صدره لتلك المحاسبة العلنيّة لشدة ما سمع. فقال شاكيًا لولده الحكم: والله لقد تعمّدني بخطبته وما عنىٰ بها غيري، فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي.. ثم استشاط غيظًا عليه متذكّرًا كلماته وأراد أن يعاقبه لذلك!!.

فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاة جمعة، وجعل يلزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف خطيب جامع قرطبة.

ولكن لما رأىٰ ولده الحكم تعلُّق والده بالزهراء والصلاة في مسجدها العظيم. قال له: ما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بها اذا كرهته؟ ولكن الناصر زجره قائلا: أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه (لا أمّ لك) يعزل لارضاء نفس

ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد؟. هذا ما لا يكون، واني لأستحي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكن أحرجني فأقسمت، ولوددت أن أجد سبيلاً الى كفارة يميني بملكي، بل يصلي منذر بالناس حياته وحياتنا ان شاء الله، فما أظن أنا نعتاض منه أبدًا. ولما اشتدت الفجوة بين الشيخ منذر بن سعيد والخليفة عبد الرحمن نتيجة محاسبة المنذر له في اسرافه على بناء الزهراء، أراد ولده الحكم أن يزيل ما بينهما فاعتذر له عند الخليفة. فقال: يا أمير المؤمنين انه رجل صالح وما أراد إلاّ خيرًا، لو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية لعذرك (ويريد بالبنية هنا القبة التي بناها الناصر بالزهراء واتخذ قرامدها من فضة وبعضها من مغش بالذهب، وجعل سقفها نوعين صفراء فاقعة الى بيضاء ناصعة يستلب الأبصار شعاعها). فلما قال له ولده ذلك أمر ففُرشت بفرش الديباج وجلس فيها لأهل دولته. ثم قال لقرابته وزرائه: أرأيتم أم سمعتم ملكًا كان قبلي صنع مثل ما صنعت؟. فقالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، وانك الأوحد في شأنك. فبينما هم على ذلك، اذ دخل منذر بن سعيد ناكسًا رأسه، فلما أخذ مجلسه قال له ما قال لقرابته، فأقبلت دموع المنذر تنحدر على لحيته لسوء ما رأى. وقال: والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادتك هذا التمكن مع ما آتاك الله وفضلّك به على المسلمين حتى ينزلك منازل الكافرين. فاقشعر الخليفة من قوله وقال له: انظر ما تقول كيف أنزلني الله منازلهم؟. فقال: نعم، أليس الله يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾[٥١]. فوجم الخليفة ونكس رأسه مليًا، وجعلت

دموعه تنحدر على لحيته ثم أقبل على المنذر وقال له: جزاك الله خيرًا وعن الدين خيرًا، فالذي قلت هو الحق. ثم قام من مجلسه، وأمر بنقض سقف القبة وأعاده ترابًا على صفة غيرها[٥٢].

النصح وقول الحق أمام ولاة الأمر من فروض الكفاية. والنصح لهم في خلوة أفضل من النصح أما الملأ، كما يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

تعمدني بنصحك في انفرادي وجنبني النصيحة في الجماعة
فإن النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه
وإن خالفتني وعصيت قولي فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

ولكن المنذر بن سعيد قد عرف أن النصح أمام الناس في البذخ في البنيان هو أفضل لأن البذخ ظاهر أمام الناس وهو نصيحة ليس للحاكم فقط ولكن لعامة الناس. كما أنه قد عرف من الخليفة سجيته لقبول النصح، والله أعلم.

أحمد بن حنبل والمعتزلة

لما أقتنع المأمون (خلافته بين عامي ١٩٥ و ٢١٨هـ) برأي المعتزلة في القول بأن القرآن مخلوق كغيره من المخلوقات، حمل الفقهاء على قبول ذلك، ولو اقتضى ذلك تعريضهم للتعذيب، فامتثلوا خوفًا ورهبًا، وامتنع أحمد بن حنبل[٥٣] ومحمد بن نوح عن القول بما يطلبه الخليفة، فكُبّلا بالحديد، وبُعث بهما من بغداد إلى المأمون الذي كان في طرسوس، لينظر في أمرهما، غير أنه توفِّي وهما في طريقهما إليه، فأعيدا مكبّلين إلى بغداد.

وفي طريق العودة قضىٰ محمد بن نوح نحبه في مدينة الرقة، بعد أن أوصىٰ رفيقه بقوله: «أنت رجل يُقتدىٰ به، وقد مدَّ الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك؛ فاتقِ الله واثبت لأمر الله»(٥٤).

وكان الإمام أحمد رحمه الله عند حسن الظن، فلم تلن عزيمته، أو يضعف إيمانه أو تهتز ثقته، فمكث في السجن عامين وثلث عام، وهو صامد كالرواسي، وحُمل إلىٰ الخليفة المعتصم (خلافته بين عامي ٢١٨ و ٢٢٩هـ) الذي واصل سيرة أخيه علىٰ حمل الناس علىٰ القول بخلق القرآن، واتُّخذت معه في حضرة الخليفة وسائل الترغيب والترهيب، ليظفر المجتمعون منه بكلمة واحدة، تؤيدهم فيما يزعمون، يقولون له: ما تقول في القرآن؟ فيجيب: هو كلام الله. فيقولون له: أمخلوق هو؟ فيجيب: هو كلام الله. ولا يزيد علىٰ ذلك.

ويبالغ الخليفة في استمالته وترغيبه ليجيبهم إلىٰ مقالتهم، لكنه كان يزداد إصرارًا، فلما أيسوا منه علَّقوه من عقبيه، وراحوا يضربونه بالسياط، ولم تأخذهم شفقة وهم يتعاقبون علىٰ جلد جسد الإمام الواهن بسياطهم الغليظة حتىٰ أغمي عليه، ثم أُطلق سراحه وعاد إلىٰ بيته، ثم مُنع من الاجتماع بالناس في عهد الخليفة الواثق (٢٢٧- ٢٣٢هـ/ ٨٤١- ٨٤٦م)، لا يخرج من بيته إلاّ للصلاة، إلىٰ عهد المتوكل (تولىٰ الخلافة سنة ٢٣٢هـ وتوفي عام ٢٤٧هـ)، فمنع القول بخلق القرآن عند توليه الخلافة، وردَّ للإمام أحمد اعتباره، فعاد إلىٰ الدرس والتحديث في المسجد.

ثبات الإمام أحمد علىٰ رفض القول بخلق القرآن طيلة صعود نجم المعتزلة وإقتناع الخلفاء برأيهم في خلق القرآن، أدّىٰ ذلك الثبات إلىٰ أفول نجمهم وقضي علىٰ

القول بخلق القرآن. فهو قد قام بفرض كفاية نيابة عن الأمة في وقت احتاجت إليه أيّما حاجة.

عبد القادر الكيلاني والمقتفي

وقف الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالىٰ[٥٥] علىٰ منبره محاسبًا المقتفي لأمر الله (تولىٰ الخلافة في ٥٣٠هـ وتوفي عام ٥٥٥هـ)، ومنكرًا عليه توليته يحيىٰ بن سعيد المشهور بابن المزاحم الظالم القضاء، فقال له مخاطبًا: ولّيت علىٰ المسلمين أظلم الظالمين وما جوابك غدًا عند أرحم الراحمين؟ فارتعد الخليفة وعزل المذكور لوقته[٥٦].

حينما يكون القضاء بيد رجل ظالم، يخشىٰ الناس علىٰ أنفسهم وأموالهم. لذلك فالإعلان عن ظلم الظالم والطلب من بيده الأمر علانية ربما كان هو الأصلح الذي قام به الشيخ عبد القادر الكيلاني. وقد قام بذلك نيابة عن الأمة أمام الخليفة.

محي الدين بن عربي والملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي

كانت للشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله[٥٧] كلمة مسموعة عند الملك الظاهر صاحب مدينة حلب غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب (هو الإبن الثالث لصلاح الدين الأيوبي رحمهما اللهَّ. عينه والده وعمره ١٥ عاما علىٰ حلب وضواحي الموصل عام ٥٨١هـ وبقي أميرًا عليها بعد وفاة أبيه إلىٰ أن توفي عام ٦١٣هـ)، فكان يرفع إليه من حوائج الناس وقد رفع له في مجلس واحد مائة و ثمان عشرة حاجة، فقضاها كلّها وكان منها إنه كلّمه في رجل أظهر سره وقدح في ملكه، وكان من جملة بطانته، وعزم علىٰ قتله، يقول الشيخ محي الدين إن الملك قد أوصىٰ بذلك الشخص نائبه في القلعة بدر الدين أي دمور أن يخفىٰ أمره حتىٰ لا يصل إليّ حديثه. فوصلني

حديثه، فلما كلمته في شأنه طرق وقال حتى أعرّف المولى ذنب هذا المذكور، وأنه من الذنوب الذي لا تتجاوز الملوك عن مثله، فقلت له يا هذا تخيلتُ أن لك همّة الملوك وأنك سلطان، واللهَّ ما أعلم أن في العالم ذنبًا يقاوم عفوي وأنا واحد من رعيتك، وكيف يقاوم ذنب رجل عفوك في غير حدّ من حدود اللهَّ. إنك لدنيّ الهمة، فخجل وسرّحه وعفا عنه، وقال لي جزاك اللهَّ خيرًا من جليس، مثلك من يجالس الملوك. وبعد ذلك المجلس ما رفعت إليه حاجة إلاّ سارع في قضائها لفوره من غير توقف كانت ما كانت[٥٨].

العز بن عبد السلام مع الملك الصالح إسماعيل

تصالح الملك الصالح إسماعيل الأيوبي مع الصليبيين، على أن يسلّم لهم صفدًا وقلعة الشقيف وصيدا وغيرها من حصون المسلمين الهامة، مقابل أن ينجدوه على الملك الصالح نجم الدين أيوب! فأنكر عليه الشيخ ابن عبد السلام[٥٩] ذلك، وترك الدعاء له في الخطبة، فغضب الصالح إسماعيل منه، وخرج العز مغاضباً إلى مصر (٦٣٩هـ) فأرسل إليه الصالح أحدَ أعوانه يتلطف به في العود إلى دمشق، فاجتمع به ولايَنَهُ وقال له: ما نريد منك شيئاً إلاّ أن تنكسر للسلطان وتقبّل يده لا غير. فقال له: «يا مسكين، ما أرضاه يقبّل يدي فضلاً أن أقبّل يده! يا قوم، أنتم في واد ونحن في واد، والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاكم».

فقال له: «لقد رسم لي إن لم توافق على ما يطلب منك أن أعتقلك». فقال الشيخ: «افعلوا ما بدا لكم». فأخذه واعتقله في خيمة بجوار خيمة السلطان، فكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمع، فقال يومًا لملوك الصليبيين حينما كان يلتقي بهم:

«أتسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم. قال: هذا أكبر قسوس المسلمين! وقد حبسته لإنكاره عليَّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وقد عزلته عن الخطابة وعن مناصبه، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم!!فقال ملوك الفرنجة: والله لو كان قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها»!!![٦٠]

إن الصلح مع الصليبيين والاستعانة بهم ضد المسلمين مقابل إعانتهم له للبقاء في كرسيه، هو ما أنكره الشيخ العز بن عبدالسلام رحمه الله. وقد اقتضىٰ ذلك قطع الخطبة باسم الملك، وهو إشارة بالغة في إنكار المنكر وأداء فرض كفاية نيابة عن الأمة.

آق شمس الدين ومحمد الفاتح

درّس الشيخ آق شمس الدين[٦١]الأميرَ محمد الفاتح[٦٢]العلوم الأساسية في ذلك الزمن، وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات العربية والفارسية والتركية وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب. وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا علىٰ السلطان محمد عندما تولىٰ إمارة مغنيسا ليتدرب علىٰ ادارة الولاية، وأصول الحكم.

واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي: «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»[٦٣]. وعندما أصبح الأمير محمد سلطاناً علىٰ الدولة العثمانية، وكان شاباً صغير السن وجّهه شيخه فوراً الى التحرك بجيوشه لتحقيق الحديث النبوي فحاصر العثمانيون القسطنطينية براً وبحراً. ودارت الحرب العنيفة ٥٤ يوماً [٦٤]انتهت بفتحها.

حين أدرك الشيخ أق شمس الدين الصفات الحميدة لدى الشاب محمد الفاتح، وجد أن عليه فرض كفاية أن يؤدبه ويعلمه ويهيئه للقيام بهذا الفتح الذي انتظره المسلمون قرابة ثمانية قرون. وهو بذلك ناب عن الأمة في فرض كفاية قام بها أفضل قيام.

سعيد النورسي والإحتلال البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى

عند احتلال بريطانيا استانبول في نهاية الحرب العالمية الأولى بدأت حركة المقاومة ضد الإحتلال الأجنبي في الأناضول. مكث بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله[٦٥] في استانبول يحرض على مقاومة الإنكليز وأصدر مع مجموعة من العلماء فتوى يحث على مقاومة المحتل، ورفض الإنتقال إلى مناطق آمنة من المحتلين حيث قال: إنه يريد أن يجاهد في أكثر المناطق خطورة. ولما دعي إلى أنقرة التي تشكّل فيها مجلس المبعوثان وجد أن أعضاء المجلس لا يؤدون الصلاة، فألقى في المجلس خطابًا يحثهم فيها على أداء الصلاة. ووجه لهم خطابًا كان من نتيجته أن قام ستون نائبًا بأداء الصلاة في مبنى المجلس. ولما عاتبه مصطفى كمال على أنه بهذا الخطاب أحدث شقاقًا بين الأعضاء فقال له: إن الذي لا يؤدي الصلاة خائن وحكم الخائن مردود. لذلك فكّر مصطفى كامل بإغرائه بالمال وإبعاده عن أنقرة بتعيينه واعظًا عامًا للولايات الشرقية لكنه رفض الطلب[٦٦]. فقد وجد رحمه الله أن واجب تثبيت الناس ومقاومة الإحتلال بالمكوث بينهم أجدى من الخروج وهو في مثل مكانته قدوة للناس. كما أن نصح أعضاء مجلس المبعوثان واجب العالم الذي لا يخاف في الله لومة لائم.

الباب السادس
فروض كفاية أخرى وملحقاتها من السنن أو المندوبات

تشمل فروض الكفاية مناحي الحياة وكلّ ما تتم به المعيشة كالبيع والشراء والزراعة والطب وتولّي المناصب الإدارية وأداء الشهادة في المحاكم وإعانة القضاة على استيفاء الحقوق والقضايا الاجتماعية كالإعانة على الزواج كما قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾[٦٧]. إن إغاثة الملهوف وإعانة الفقير وإطعام الجائع وكفالة اليتيم والهندسة والتجارة وتعلّم اللغات الأجنبية وتعلّم مختلف أنواع الحرف كلّها من فروض الكفاية، إذ إن الأمة لا تستطيع أن تحيا وتتقدم بدونها، وكذلك يعتبر الجهاد بمختلف أشكاله من فروض كفاية، لأن الأمة لابد أن تكتفي في كل مجال يقودها إلى القوة، فالله سبحانه وتعالى طالبها بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[٦٨]، وقد أبقى الله تعالى نوع هذه القوة دون تحديد، فهي شاملة لكل قوة تُصلح الأمة سواء كانت قوة روحية أم علمية أم فنية أم جسدية. وسنعرض بعض جوانب فروض الكفاية أو ما يجري مجراها من سنن أو غيرها مما ينبغي القيام به.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الله تعالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فتهيئة جماعة متخصصة في ما يحتاجه المجتمع هو واجب يجب أن تقوم به فئة كافية منهم. إن النظر إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشمل جوانب واسعة في حياة الأمة. فالأم حين تعلّم طفلها عادة حسنة فهو أمر بمعروف وحين تنهاه عن عادة سيئة فهو نهي عن منكر. ولما يؤمر به وما ينهى عنه مستويات بقدر أهمية الموضوع الذي يجعلها واجبًا أو سنة أو مندوبًا بل وحتى مباحًا. فالأمر المباح إن دخلت فيه النية الصالحة يتحول إلى طاعة مثال ذلك الترويح عن النفس الذي يثاب عليه المرء إن كان بنية التقوّي على العبادة. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب واسع من أبواب فرض الكفاية.

بناء المساجد

عمارة المساجد من أقرب القربات عند الله. وينبغي أن تتوافر المساجد في الأحياء والمدن والقرى بما يتيسر تأدية الصلوات بيسر. وهذا هو واجب القائمين على تخطيط المدن والجهات التي تسند لها مهام بناء المساجد أو الجمعيات الخيرية أو المحسنين الذين بإمكانهم التبرع لبناء المساجد وصيانتها وإدامتها. لذلك فواجب من يطلّع على نقص في توافر المساجد في حيّ أو قرية ما، أن يبادر للمساهمة في ذلك. فعمارة المساجد قد تكون واجبًا إن لم يتوفر مسجد في الحي وقد تكون سنة أو مندوبًا إن كان هناك ضيق أو بعد عن السكن مثلاً.

السنن المتكررة في حياة المسلم

كثير هي السنن التي تتكرر في حياة المسلم. فتشميت العاطس وإرشاد المسترشد حول الطريق وإماطة الأذىٰ عن الطريق وما يشبهها، كل ذلك يتطلب مبادرة من المرء يؤدي بذلك واجبًا (يأثم إن لم يقم به مثل رد السلام) أو يثاب عليه إن قام به تطوعًا نيابة عن الجماعة أو من يتعلق الأمر بهم.

المحتاجون ماليًا

الفقراء هم الذين يحتاجون المال وليس لديهم المال والمساكين الذين لهم مصدر رزق لكنه غير كافٍ. إن توفير العون للفقراء وذوي الدخل المحدود يتحقق في العصر الحديث بتدخل حكومي عادة، فمن يتولىٰ شأنًا عامًّا عليه واجب اتخاذ ما يلزم للقضاء علىٰ الفقر وتحديد الاجراءات الكفيلة بتوفير المال لهم. أما إذا كان الأمر فوق استطاعة الجهات الرسمية فيقع علىٰ واجب المجتمع توفير الوسائل المساندة الأخرىٰ كالجمعيات الخيرية لجمع الأموال وإيصالها إلىٰ الفقراء والبحث عن المعوزين وخاصة المتعففين الذين لا يسألون الناس وقد يتسع نطاق العمل بتوفير وسائل العمل لمن يستطيع العمل ولا يجد سبيلاً إلىٰ ذلك. إن البحث عن الفقراء والمساكين ومعونتهم لا بد منه عند دفع الزكاة لكل فرد. لكن البحث الدقيق ليس بإمكان كل أحد. لذلك فمن قام بمثل ذلك العمل وسهّل جمع الأموال وإيصالها لمستحقيها بشكل منتظم يؤدي فرض كفاية عن المجتمع ومن ثم عن الأمة.

المحتاجون لرعاية ما

كالأيتام والعجزة وكبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة والمرضىٰ. فمثل هذه

الرعاية تقع على الأقرب فالأقرب. وعلى عاتق الجهات الرسمية واجب توفير الحماية القانونية لأموال الأيتام وتوفير دور رعاية المسنين وذوي الاحتياجات الخاصة. وقد يتعدى ذلك إلى جهات عديدة كالبحث العلمي لتوفير أداة ما لإعانة عوق معين ومن ثم توفير الإمكانات لمثل هذه الأبحاث من توفير المال اللازم والكوادر المطلوبة والمختبرات اللازمة .. وهكذا فإن الحاجة تمتد بتطور المجتمع والتقنيات اللازمة لسد تلك الحاجات.

حاجة الأمة للمهن المختلفة

تعلم المهن التي تحتاجها الأمة يبدأ بتوفير هذه الحاجة بالبحث عنها. فما تحتاجه الأمة من تخصصات غدًا يجب البدء بتوفيره اليوم. وقد يحتاج التخطيط لمثل هذه التخصصات سنوات عديدة. وبعد تحديد المهن المطلوبة بأعدادها ومؤهلات من سيقوم بها وكيف سيجري توفيرها وتدريب من يقوم بها... إن هكذا مهمة تقع على عاتق الجهات الإدارية الرسمية وعلى عاتق المجتمع والأفراد للمساهمة في سد العجز في التخصصات المختلفة.

في بعض الأحيان تكون دورة سد العجز ذات صبغة طبيعية يحددها السوق. فحين تكون هناك ندرة في مهنة ما، ترتفع أجور من يعمل فيها، فيزداد الإقبال عليها إلى أن يسد العجز. لكن الحاجة إلى بعض المهن التي تمس الحاجة لها ولا يرغب الناس بها تحتاج إلى تدخل من الجهات الرسمية أو إلى تطوع يثاب عليها المرء أو الجماعة إذا قاموا بسد تلك الثغرة.

فمثلاً قد تحتاج الأمة إلى طبيبات للأمراض النسائية، فعند ذلك تتوزع المسؤولية

على الجهات الرسمية وعلى من يستطيع الدخول لكليات الطب وعلى الطبيبات المتخرجات للتخصص في ذلك التخصص. ومثل ذلك مهن لا حصر لها كالمعلمات وغيرها.

الصلاة على الميت

من فروض الكفاية التي تتكرر كل ساعة في من ليل أو نهار هي وجوب الصلاة على الأموات. واليوم وقد اتسعت ديار المسلمين ووقع بعضهم تحت نفوذ غير المسلمين، بل وقد اضطر بعضهم إلى إخفاء إسلامهم، وبعضهم يُقتل دون أن يوجد من يصلي عليه، برزت الحاجة للصلاة عليهم فهي فرض كفاية تأثم الأمة إن لم يؤدّيها أحد.

كان الشيخان محمد النبهان وناظم العاصي العبيدي رحمهما الله[٦٩] يصليان دائمًا بعد صلاة سنة المغرب صلاة الغائب بنيّة الصلاة على موتى المسلمين الذين لم يُصلّى عليهم.

فقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ خرج إلى أصحابه يوم مات النجاشي[٧٠] ملك الحبشة رحمه الله، فنعاه لهم، وصفّهم وصلى عليه صلاة الجنازة.

فهذا الحديث دليل على مشروعية الصلاة على الغائب، فقد ذهب الشافعية والحنابلة إلى أنه تشرع الصلاة على كل غائب عن البلد، ولو صُلِّي عليه في المكان الذي مات فيه .كما أنه تشرع الصلاة على الغائب إذا كان له نفع للمسلمين، كعالم أو مجاهد أو غني نفع الناس بماله ونحو ذلك. وهذا القول رواية عن الإمام أحمد، وفي رواية أخرى عن الإمام أحمد أنها تشرع بشرط ألا يكون قد صُلِّي عليه في المكان الذي مات

فيه. وسئل بعض العلماء[٧١] عن واقع المسلمين الآن يموتون جماعة، وبالتأكيد لم يصلّ عليهم كما هو حاصل في وقتنا الحاضر فأجاب بقوله: «إذا تأكدت أن شخصًا ما لم يصل عليه فعليك أن تصلّي عليه لأنها فرض كفاية ولابد منها». وعلى ذلك تعتبر صلاة الغائب على من توفي من المسلمين في ذلك اليوم ولم يصلّ عليه أحد، فرض كفاية كان يقوم بها الشيخ محمد النبهان رحمه الله في سوريا وكذلك الشيخ ناظم العاصي العبيدي رحمه الله في العراق وبعض من تتلمذ على يديهما من بعدهما وبذلك يؤدون فرض كفاية نيابة عن الأمة.

الأوقاف مثال على النيابة عن الأمة في فروض الكفاية

شهد العالم الإسلامي أنواعًا شتى من الأوقاف طيلة القرون الماضية. يحتفظ المغرب مثلاً بسجلات كثيرة، تتعلق بأوقاف تساند كثيرًا من الناس، وخاصة الفقراء والمعوزين وذوي الحاجة. وقد وسّع الواقفون على المُحبس عليهم، فأوقفوا حمامات وآبار، وسقايات للسبيل، كما أوقفوا دورًا للضيافة أو لإقامة حفلات الولائم بالنسبة لأعراس المقلّين المقبلين على الزواج، إلى جانب ثياب وحلّي يليق بالعرائس. يضاف إلى ذلك مساعدة الأطفال الصناع الذين يشتغلون عند معلم ما، فتتكسر لهم بعض الأواني، ويخافون من عقاب معلّمهم، فإذا بالمحسنين يوقفون أوقافًا خاصة بهذا، كما يوقفون دورًا للوضوء بالنسبة للنساء من أجل التطهر لأداء الصلاة. وجعلوا أوقافًا خاصة بالغرباء، بغية تخليصهم مما يثقل كواهلهم من الديون التي في ذمتهم، كما جعلوا أوقافًا، قامت وتقوم بدور فاعل في التآزر والتكافل المجتمعي، حيث يلاحظ إن الواقفين وقفوا كلّ أو جلّ ما يملكون على المعتوهين، والمقعدين، والزِمنى

والمكفوفين... هنالك أوقاف تتوفر على كثير من الأموال وضعت خصيصًا لتسليفها من أجل المحتاجين بدون فائدة، ولا عوض. كانت هذه الأموال موضوعة بخزينة في قبة القيسارية بفاس، يستقرض منها المحتاج، ويعيد القرض متى وجد... وهنالك قروض أخرى في الطعام، وقفها أصحابها من أجل تسليفها للمزارعين المحتاجين إلى البذور على أساس ردها إلى خزينتها متى تأتّى لهم ذلك[٧٢].

ولقد ألمّ الفقيه الشاعر العلامة الحاج أحمد بن شقرون رئيس المجلس العلمي بفاس بهذه المظاهرمن الأوقاف بالمغرب وسجلها في قصيدة قال فيها:

اصـخ تـدر مـا أسـدى أخ الـذوق مـن جـدا
وفي حبـيس يستحسـن السـبق للخـير
إذا عطـب اللقـلاق يومـاً فإنـه
بـمال مـن الأوقـاف يجـبر مـن كسـر
وإن لم تجـد أنثـى مكانـاً لعرسـها
فـدار مـن الأوقـاف تنقـذ مـن فقـر
وإن لم تجـد عقـد الجيـد فإنـه
يعـار مـن الأوقـاف يوصـل للخـدر
وإن جـن مجنـون، فـإن علاجـه
بـمال مـن الأوقـاف يصـرف للفـور

تعـــالج موســـيقىٰ دماغـــاً مـــن الأذىٰ

بهـــا يعـــزف الفنـــان مبتســـم الثغـــر

وقـــد أوقفـــوا جـــبر الأواني، ربـــما

يهشـــمها طفـــل، فتقطـــع مـــن أجـــر

ولكـــن بـــمال الوقـــف يأخـــذ غيرهـــا

بـــلا عـــوض منـــه، فيســـلم مـــن خســـر

وقـــد أوقفـــوا دار الوضـــوء لنســـوة

يـــردن صـــلاة في حيـــاء وفي ســـتر

وقـــد أوقفـــوا وقفـــاً يخـــص مؤذنـــاً

يـــؤذن للمـــرضىٰ بعيـــداً مـــن الفجـــر

ليكشـــف عـــنهم مـــن كثافـــة غربـــة

حجـــاب ظـــلام الليـــل والســـقم والـــوتر

مـــبرات أوقـــاف الألىٰ قصـــدوا إلىٰ

معـــان مـــن الإحســـان جلـــت عـــن الحصـــر

وهكذا فالأوقاف باب من أبواب فروض الكفاية نيابة عن الآمة. فكلما برزت حاجة لمن يحتاج العون من صنف خاص، استدعى ذلك من يقوم به. فمن قام به ناب عن الأمة في فرض كفاية، وإن لم يقم أحد بذلك، عمّ الإثم الجميع.

القيام بسنة حسنة جديدة أو إحياء سنة أميتت من سنن الرسول عليه الصلاة والسلام

مَن دَعا إلى هُدًى، كانَ له مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلكَ مِن أُجُورِهِمْ شيئًا، ومَن دَعا إلى ضَلالَةٍ، كانَ عليه مِنَ الإثْمِ مِثْلُ آثامِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلكَ مِن آثامِهِمْ شيئًا[٧٣].

وقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: مَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ له مِثْلُ أَجْرِ مَن عَمِلَ بهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِن أُجُورِهِمْ شيءٌ، وَمَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عليه مِثْلُ وِزْرِ مَن عَمِلَ بهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِن أَوْزَارِهِمْ شيءٌ [٧٤].

وعلى ذلك فكلما برز أمر جديد أو انتُبِه إلى سنّة قد أميتت، كان هناك حاجة إلى من يقوم بفرض كفاية نيابة عن الأمة.

كما أن هناك فروض كفاية أخرى أو سننًا، مثل تشميت العاطس وعيادة المريض وصلاة الجماعة وصلاة العيد وصلاة الكسوف والخُسوف والاستسقاء والاعتكاف في شهر رمضان. ورغم أن هذه سنن بعضها مؤكد، إلاّ أن الكلام هنا عن تركها جملة وتفصيلها وإلغاء العمل بها، فعند ذلك يتحقق الإثم ومن الضروري إحياءها. فهي بهذا يكفي أن قوم بها البعض لكي لا تندثر تلك السنن.

جوانب حديثة في فروض الكفاية

كل وقت له خصوصية في وجود عمل هو أفضل الأعمال في ذلك الوقت. فأفضل العبادة ساعة أذان الظهر يوم الجمعة هو أداء الصلاة، وأفضل العمل بعد غروب الشمس في شهر رمضان هو الإفطار. وهكذا فإن كثيرًا من العبادات ليس لها غرض واضح، بل المهم هو تحرّي مرضاة الله تعالىٰ في ذلك الوقت. وهذا في فروض الأعيان. ومثل ذلك يقع في فروض الكفايات.

وعلىٰ هذا علينا اليوم أن نتحرىٰ ما تحتاج الأمة ولم يقم به أحد، أو إن كان هناك تقصير في القيام به. ومن يفكّر في ذلك يجد آلاف الأبواب التي علينا العمل عليها وسدّ منافذ التقصير فيها. فماذا علينا عمله تجاهها؟

إن علىٰ كل امرئ أن ينظر أين يقف ويتلمس ما حوله من تقصير في أمور يستطيع أن يصلح فيها. فكل امرئ محتاج أن ينظر إلىٰ التقصير في نفسه فيصلح ما استطاع. وعليه أن ينظر إلىٰ من يعيلهم من أفراد أسرته وما يمكنه من إصلاح، ثم ما حوله من أفراد أو أمور تقتضي الإصلاح في عمله ومهنته وما يصادفه في شئون حياته، ثم عليه أن ينظر إلىٰ حال أمته وما يستطيع أن يقدم لها سواء في مهنته، أو بالتعاون مع غيره. إن أكبر العقبات في سبيل ذلك هو اليأس وفقدان الأمل في الإصلاح، والانكفاء علىٰ النفس دون النظر إلىٰ ما تعانيه الأمة وعدم الاستعداد للتضحية بالقليل في سبيل الاصلاح. وهذا من أكبر العقبات في نهضة الأمة التي تحتاج جهود كل أبنائها وأن يتعاونوا علىٰ ذلك، دون أن يهدم أحدهم ما يبنيه الآخرون.

إن الشعور بالوطنية والرغبة في الإصلاح وأداء الواجب قبل السؤال عن المكاسب هو ما يدفع الأمم المتقدمة اليوم، وهو ما علينا تداركه والسعي لدعمه. فمن يجد من ذلك ما ينبغي القيام به وقام هو بذلك فقد ناب عن الأمة في فرض أو سنة أو نافلة على نحو الكفاية.

المساهمة في التقدم العلمي والعولمة في العالم

البحث العلمي

يشكل البحث العلمي اليوم واحدًا من أهم الجوانب في تقدم البشرية في مختلف جوانب الحياة. والأمة التي تبذل جهدًا أكبر في البحث العلمي تنال الحظ الأوفر من المكانة بين أمم الأرض اليوم. يقوم البحث العلمي على جهود أفراد أو مجموعات صغيرة ممن آتاهم الله القدرة والدراية في تخصصاتهم. وهؤلاء يسدّون عن غيرهم ذلك. فهم ينوبون عن الأمة في فرض كفاية مهم. وقد يكون ذلك بتوكيل من ذوي الشأن أو بشعور ذاتي نيابة عن الأمة. فإن صدقت النيات كان ذلك ذا ثواب كبير لهم ومنفعة لهم وللأمة.

نشر العلم والإعلام الهادف

نشر العلم من فرائض الكفاية. وقد يأخذ نشر العلم أشكالاً عديدة. فقد يكون في إنشاء مدرسة أو كلية أو جامعة أو مركز أبحاث أو تأليف كتاب وقد يكون في خطبة وقد يكون في نشر مقال في مجلة أو صحيفة وقد يكون في النشر على الإنترنت بشكل مقال أو فيديو أو تعليق على مقال، أو قد يكون في المشاركة في وسائل التواصل الاجتماعي بتعليق أو نشر خبر. وقد يكون بشكل منفرد أو مشتركًا مع غيره. إن هذه الأعمال إذا حسنت النية أن تكون في سبيل الله وليس ابتغاء الظهور أو مديح

الناس، فإن الله يبارك في هذه الأفعال وينفع بها. فإذا وجد المرء نفسه قادرًا على مثل هذه الأعمال ومتقنًا لها ووجد حاجة الأمة إلى مثل هذه المنافع، ولم يكن هناك من يقوم بها، فإن عمله هو فرض كفاية عليه القيام به. وتجدر الإشارة أن مثل هذه الأعمال تحتاجها الأمة على قدر أهميتها. فإن كانت على درجة عالية من الأهمية وجب القيام بها من عدد ممن يتقنها إلى حين تغطية تلك الحاجة. وإن كانت أقل أهمية كان العمل عليها سُنة أو نافلة على قدر أهميتها.

تأليف الكتب أو ترجمتها

الحاجة إلى الكتب المنهجية تأليفًا أو ترجمة ما هو ضروري أن يطلع عليه المجتمع أصبح من الحاجات التي ينبغي أن يقوم بها بعض من يتمكن من ذلك. فالبحث عن النقص في حقل ما والحاجة إلى علم ما أو توفير المال لطبع ونشر كتاب ما والإعلان عن مقالة مهمة أو المساهمة في نشرها وغير ذلك مما يقع تحت عنوان نشر العلم فهو واجب يحتاجه المجتمع ويقع على من يستطيع المساهمة فيه، وقد يكون ذلك سنّة أو مندوبًا تبعًا لأهمية الموضوع والحاجة إليه.

عمل برامج وأنظمة حاسوب

برزت أهمية تقديم برامج الحاسوب لخدمة المجتمع في العقود الأخيرة وهي تزداد أهمية بين مجال وآخر. واليوم مثل هذه البرمجيات قد تحتاج إلى فرد أو فريق عمل أو مؤسسات لكي تغطي جوانب تعليمية أو إعلامية أو للتوعية أو تسهيل مهام أو حفاظٍ على الصحة أو المال أو غيرها. وكل ذلك يجب أن يقوم به فرد أو جماعة على مقدار أهميته سواء كان ذلك فرضًا أو سنة أو نافلة. وقد يكون ناتج العملية خدمة معينة على الهاتف المحمول أو على الإنترنت أو لعبة تعليمية أو شريط فيديو أو غير

ذلك. فاليوم تغزو الأسواق كثير من هذه الخدمات المنتجة من دول أجنبية ويدخل في بعضها تقاليد أو عادات أو تصورات ليست من تقاليد أو عادات أو مُثُل الأمة. لذلك يصبح في هذه الحالة عمل ما يناسب تقاليد وعادات وتصورات الأمة واجبًا على من يقدر على ذلك، ويستمر ذلك لحين القيام بما تحتاجه الأمة على قدر أهميته وحجمه.

استعمال التقنية لخدمة المسلمين

تقدمت التقنية اليوم بشكل غير مسبوق. وأصبحت التقنية هامة وضرورية في مختلف جوانب الحياة. وقد تتوفر التقنية جاهزة من دول أكثر تقدمًا. وقد تكون تكاليف تلك المنتجات باهظة وقد يكون إنتاجها محليًا ممكنًا أو قد يكون غير ممكن. إن النظر إلى التقنية كحاجة تتحدد أهميتها وفق ما تحتاجه الأمة وما يبنى عليها من فوائد، وما يمكن أن تدفع من مضار. إن اتخاذ قرارات حول التقنية قد يكون من فرد وقد يكون من مجموعة أو شركة أو قد يكون قرارًا استراتيجيًا من جهة عليا في الدولة. كل ذلك يقع في دراسة أهمية تلك الخطوة التي قد تكون في غاية الأهمية وقد تكون أقل أهمية بحسب وضعها وتأثيرها على حياة الأفراد أو تعليمهم أو صحتهم أو أموالهم أو غير ذلك. ولذلك فإن خدمة تقديم تقنية معينة قد يكون فرض كفاية نيابة عن الأمة بحسب أهميتها.

الصناعة أو الزراعة أو الغذاء

يحتاج المجتمع إلى أن يصنع غذاءه أو لباسه أو ما يساعده في سكنه الكثير. وبعض هذه الحاجات يمكن توفيرها بشرائها من دول أخرى. لكن كلفة ذلك قد تكون باهظة بالمال أو بفقدان القرار المستقل وينتج عن ذلك تحكّم الغير في شؤون

المسلمين. لذلك فالأمن الغذائي والمائي من الأمور التي يجب توفيرها في المجتمع. وتقع مهمة ذلك على مفكري الأمة والمخططين وأصحاب القرار إضافة لمن يستطيع أن يساعد في ذلك كالقائمين بالبحث العلمي أو الصناعيين أو أصحاب رؤوس الأموال الذين عليهم أن يفكروا بحاجات المجتمع وعدم الإكتفاء بالأرباح الشخصية. فرب مشروع تشتد الحاجة لإنتاجه لكنه قليل الأرباح يجب أن يقام قبل مشروع آخر أكثر ربحًا لكن إنتاجه في عداد الكماليات.

توفير حاجة الأقليات المسلمة إلى فروض الكفاية

مقابر المسلمين في الغرب

من المشاكل التي تعاني منها الجاليات الإسلامية في البلاد التي تشكل فيها أقلية، تخصيص مقابر خاصة للمسلمين. وفي غالب الأحيان يكون الحصول على مقبرة أمرًا شاقًا يصطدم بالتعليمات والقوانين، ويحتاج ذلك إلى إصرار ومتابعة من المسلمين بشكل جماعي. وقد يكون بالإمكان الحصول على قطع الأرض لتكون مقبرة في مدينة تقطنها جالية كبيرة، لكن يكون من الصعب الحصول على ذلك في مدن تكون الجالية المسلمة فيها صغيرة. هذا بالإضافة إلى أن تكاليف الدفن في بعض البلدان تعتبر مرتفعة جدًا بالنسبة للعائلات ذات الدخل المتواضع. كما أن بعض الدول تعتبر القبور مؤجرة لفترة زمنية محددة تصل ١٠ أعوام أو ١٥ عام أو ٣٠ عاما، ثم يجب بعده إزالة رفاة المتوفى وحرقها أو تجديد إيجار القبر مدة أخرى. لذلك فإن تقديم الخدمة للمسلمين بالعمل على إيجاد المقابر لهم، يعتبر فرض كفاية، على بعضهم القيام به نيابة عن الجالية في ذلك البلد.

تعليم أبناء المسلمين

تعاني الجاليات الاسلامية من مشكلة تعليم أولادها بشكل عام. تقوم بعض الجاليات بتعليم أولادها في المساجد أثناء عطلة نهاية الأسبوع. ويحتاج ذلك توفير المعلمين من بين أفراد الجالية، أو من أئمة المساجد. وقد برزت محاولات في بعض البلدان لإنشاء مدارس للمسلمين معترف بها من السلطات الرسمية. كما تسمح بعض الدول بإعطاء دروس عن الدين الاسلامي لطلبتها ويحتاج ذلك إلى كفاءات خاصة لمن يلقي مثل هذه المحاضرات. تتمتع بعض الجاليات الإسلامية بنضج وشعور بأهمية الاعتناء بالتعليم والاعتناء به. لكن الكثير من أبناء الجاليات الاسلامية لا يزالون مندمجين في التعليم القائم في تلك البلاد دون أي تعليم خاص بالدين الاسلامي سوى ما قد يتعلمون من والديهم. إن المبادرات التعليمية تعتبر فروض كفاية للجاليات الاسلامية أينما وجدت.

الجمعيات الاسلامية

تحتاج الجاليات الاسلامية إلى من يمثلها أمام السلطات المحلية ومن يطالب بحقوقها ومن يجمع شتات أمرها. بدأت مثل هذه التجمعات تشكل جمعيات خاصة بها. وقد يحصل في كثير من الأحيان التنافس بينها وعدم التعاون. إن الشعور بضرورة أن يكون للمسلمين من يمثلهم بشكل صحيح بدأ يتبلور في بعض الدول. لذلك فإن السعي لإنشاء مثل هذه الجمعيات وصدق تمثيلها للجاليات الاسلامية هو فرض كفاية نيابة عن تلك الجاليات.

إغاثة الملهوف

عن أبي موسىٰ الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ قالوا: فإنْ لَمْ يَجِدْ؟ قالَ: فَيَعْمَلُ بيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ ويَتَصَدَّقُ قالوا: فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أوْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قالَ: فيُعِينُ ذا الحاجَةِ المَلْهُوفَ قالوا: فإنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قالَ: فَيَأْمُرُ بالخَيْرِ أوْ قالَ: بالمَعروفِ قالَ: فإنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قالَ: فيُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فإنَّه له صَدَقَةٌ[٧٥].

إغاثة الملهوف تتمثل في كثير من نواحي الحياة، من فقر ومرض وعجز واغتراب ويتم وترمل وغيره. لذلك فإن إغاثة الملهوف الذي يحتاج إلىٰ معونة فردية أو جماعية في غاية الأهمية وتقع في فروض الكفاية خاصة علىٰ من حضرها أو عرف بها واستطاع القيام بها.

هل يتوقف فرض الكفاية على المسلمين؟

غير المسلمين يمكن أن يساهموا في أفعال تخدم المسلمين

إن فرض الكفاية هو عبادة يقوم بها المسلم أو جماعة من المسلمين خدمة للمجتمع أو للأمة. لكن بين غير المسلمين من تدفعه النوازع الإنسانية للقيام بأعمال الخير التي تخدم البشر من مسلمين وغير مسلمين وهكذا تكثر اليوم أعمال الإغاثة والأعمال التطوعية التي يراها بعض غير المسلمين واجبات تخدم الإنسانية. تتضمن مثل هذه الأعمال خدمات اللاجئين والمهجَّرين وضحايا الحروب ومقاومة الأمراض المعدية ونشر التعليم في الأماكن الفقيرة وغيرها. وقد تكون بعض تلك الجهود ذات أهداف خاصة كالتبشير أو مساعدة القوىٰ المستعمرة، لكن بعضها ذو أهداف إنسانية سامية. فهذه الأعمال يمكن النظر إليها كأعمال مساعدة لفروض الكفاية. فتيسير الأعمال الإغاثية التي لا يتطرق الشك في أنها ذات أهداف خفية هو من واجب من

يستطيع المساعدة في توفير تلك الخدمات.

وفي نقض الصحيفة التي بموجبها قاطعت قريش رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم والمسلمين في مكة، مثل علىٰ ذلك:

إغاثة الملهوف من شيم العرب – نقض الصحيفة –

شعر بعض أفراد قريش، بالخزي والعار، لما أصاب بني هاشم وبني المطلب من ضرّ وألم نتيجة مقاطعتهم لهم، ولما حلّ بهم من جوع وعطش، فقام أحدهم وكان أول من شعر بذلك هو هشام بن عمرو حيث سار إلىٰ زهير بن أبي أمية المخزومي وقال له: يا زهير إننا والله قد ظلمنا أهلنا وأقاربنا، وإن ما فرضناه عليهم لجهل منا وظلم ما بعده ظلم، أفترضىٰ يا زهير، أن تأكل وتشرب وتلبس الثياب، وتبيع وتشتري، وتنام هانئا قرير العين، وتصول وتجول؟، وأخوالك بنو هاشم والمطلب في الشعب محصرون مقاطعون، لا طعام عندهم ولا شراب، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، قد فارق الزوج زوجه، والأب أبناءه .قال زهير: ويحك يا هشام، أفنخالف قومنا؟ فتدب الفرقة فيما بيننا، ثم إن محمدًا ما يزال يحاربنا ويحارب آلهتنا، وإن نقضنا الصحيفة شمت بنا أعداؤنا، وذهبت هيبتنا بين القبائل. فقال هشام: إنك تخالف هواك ورغبتك يا زهير، ثم إن محمدًا لن يدع هذا الأمر الذي جاء به، فقد عرفناه وخبرناه، وسواء عليه أنقضنا الصحيفة أم لا، فإنه لن يكفّ عن سبّ آلهتنا وتسفيه أحلامنا، ثم إننا بتشديد الحصار عليه، قد ندفع كثيرًا من الناس للإيمان به والدخول في دينه، فلماذا لا ندعو إلىٰ نقض الصحيفة وليكن من شأن محمد بعد ذلك ما يكون. فقال زهير: وماذا عساي أن أفعل؟ وأنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لسعيت في نقض الصحيفة، ولقمت بتمزيقها. فقال هشام: قد وجدت رجلاً. قال

زهير: فمن هو؟ قال هشام: أنـا. فقال زهير: أما ترىٰ أننا قليل، فابحث لنا عن ثالث ندعم به موقفنا. فذهب هشام إلىٰ المطعم بن عدي النوفلي الذي كان صديقًا لأبي طالب. وقال له ويحك يا مطعم أرضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد ذلك موافق لقريش فيه؟ والله إننا لنغدو سخرية العرب إن واصلنا مقاطعتنا لهم والتشديد عليهم. فقال المطعم: ويحك يا هشام أفترضىٰ أن تتفرق كلمتنا وتسوء سمعتنا، ثم ماذا أصنع وأنا رجل واحد فقال هشام: قد وجدت ثانيًا وثالثًا. وقال: من هما؟ قال: أنا وزهير بن أبي أمية المخزومي. فقال المطعم: هلا جعلتهم أربعة، فيكون ذلك أقوىٰ لنا وأوفق. فذهب هشام إلىٰ أبي البختري بن هشام الأسدي. فقال له: يا أبا البختري، ما قولك في هذا الذي حلّ ببني هاشم والمطلب أفأنت راض أن يموتوا جوعا ويهلكوا عطشًا؟ وبنت عمك خديجة بنت خويلد معهم تكابد الجوع والعطش أيضا؟ فقال أبو البختري: وهل من أحد يعين علىٰ هذا؟ قال هشام: نعم قال أبو البختري: ومن هو؟ قال هشام: أنا وزهير والمطعم. فقال البختري: فهل من خامس، نردّ به بأسا وشدة. فذهب هشام إلىٰ زمعة بن الأسود بن المطلب الأسدي، وذكر له حق بني هاشم والمطلب وقرابتهم، وأن هذه المقاطعة لا تجوز بل هي جائرة ظالمة. فقال زمعة: ألك معين علىٰ ذلك يا هشام؟ فقال: نعم، ثم ذكر له أسماء الرجال الذين وافقوه علىٰ نقض الصحيفة، فما كان منهم إلاّ أن اجتمعوا وتعاقدوا وتعاهدوا علىٰ نقض الصحيفة الظالمة، وتبرع زهير أن يبدأ بحديث النقض، ثم إنهم حضروا بأسلحتهم، أندية قريش، فهبّ زهير واقفًا، مبتدرًا القوم بقوله: يا أهل مكة، أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، ونبيع ونبتاع، وبنو هاشم والمطلب هلكىٰ، لا يبيعون ولا يبتاعون والله لا أقعد حتىٰ تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة. فقال أبو جهل: كذبت

والله لا تشق. فأجابه زمعة بن الأسود بقوله: بل أنت الكاذب يا أبا جهل، فوالله ما رضينا بها حين كتبت. ووافقه الرجال الخمسة وأيدوه. ثم إن أبا طالب وكان حاضرًا حديث القوم، وقف قائلا: يا قوم، إن ابن أخي قد ذكر لي، أن الله قد سلط الأرضة علىٰ الصحيفة، فلم تدع اسمًا لله إلاّ تركته، ولم تدع ظلمًا وقطيعة وبهتانًا إلاّ أكلته، فإن كان ما يقوله صحيحًا، أطلقناهم وأخرجناهم من الشعب، فقام القوم إلىٰ الصحيفة، وقام المطعم بن عدي ليشقّها فوجد الأرضة قد أكلتها إلاّ ما كان مكتوبًا باسمك اللهم. فصعقت قريش، ورأت أن الأمر قد خرج من يدها، وأن لبني هاشم والمطلب أنصارًا أقوياء منهم لن يسلموهم، فانصاعت للأمر الواقع ورضيت علىٰ مضض تمزيق الصحيفة، فذهب الرجال الخمسة إلىٰ الشعب، وأعادوا بني هاشم وبني المطلب إلىٰ مساكنهم في مكة، وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة من البعثة، فتخلص بنو هاشم وبنو المطلب من هذه المحنة القاسية والشدة الأليمة، أما رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم فقد مضىٰ يدعو قومه إلىٰ الله عز وجل وإلىٰ نبذ الأوثان والأصنام، وبدأت شوكة الإسلام تزداد قوة ومنعة بدخول وفود جديدة في الدين الإسلامي الحنيف(٧٦).

ووفاء لمشاركة مطعم بن عدي في نقض الصحيفة وفي إجارته لرسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم بعد عودته من الطائف، يذكره رسول الله بخير حين قال:

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنّ النبيَّ ﷺ قال لأسارىٰ بدر: لو كان مطعم بن عدي حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتنىٰ لأطلقتهم له(٧٧).

ومن ذلك يتبين أن حاجات المجتمع يمكن أن يساعد فيها غير المسلمين الغيورين علىٰ خير المجتمع وترابطه والمصلحة العامة له.

الخلاصة:

الأمة بحاجة إلى من يبادر بعمل الخير. فكلّ عمل يبدأ بخطوة من فرد. فروض الكفاية تحتاج من يقوم بها نيابة عن الأمة أو عن مجتمع كبير أو جماعة صغيرة. فإن قام بها واحد أو ما يكفي لسدّ ذلك الفرض استراح الجميع. أما إن لم يقم بها أحد أو قام بها عدد غير كافٍ، أصاب العنت والضيق والمشقة الجميع. فقيادة أي جماعة تحتاج إلى قائد. فإن توفر القائد القوي الأمين كانت الجماعة على حظ من اليسر والترابط. أما إن لم يكن هناك قائد فالفوضى والتناحر يعمّان المجتمع. وإن كان هناك حاجة لعدد من المختصين في حقل ما، وجب توفير ذلك العدد، وإلاّ أصاب المجتمع الضيق والعنَت.

فرض الكفاية يمكن أن يسده أمر من رئيس الجماعة أو قائدها. ويمكن أن يقوم به فرد أو أفراد بأمر من الرئيس الأعلى أو باقتراح من الجماعة، ويمكن أن يقوم به فرد متطوع في المجتمع، أحس بالحاجة لما هو ناقص، فقام ليكمله. ويقع على عاتق العلماء أن ينبهوا على مواطن الضعف والحاجة، وأن يقدموا نصحهم لوجه الله وفق ما أراد الله، وذلك فرض كفاية عليهم. وتبرز الآن في ضوء التقدم التقني الهائل، الحاجة إلى أنواع شتى من فروض الكفاية التي تحتاج من يقوم بها. ولا تنحصر الحاجة إلى أمور ذات ضرورة قصوى بل هناك حاجة إلى أمور من حاجات الناس والأمة العادية في حياتها، أو أمور ترفِّه على الناس حياتهم أو تصرف عنهم ضررًا بالغًا أو صعوبات ذات مستوى مختلف من الضرر. كلّ ذلك بحاجة إلى من يقوم به ويكفي أن يقوم به فرد أو مجموعة أفراد، فهو يشابه في ذلك فروض الكفاية.

المصادر

(١) هو حجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي ولد سنة ٤٥٠ هـ وتوفي سنة ٥٠٥هـ فقيه شافعي صوفي، درّس في المدرسة النظامية ببغداد، له عشرات المؤلفات أشهرها كتاب إحياء علوم الدين. وله أثر كبير في مقاصد الشريعة والفلسفة من منظور إسلامي والنص الأول من كتاب المستصفى في أصول الفقه، والثاني من كتاب إحياء علوم الدين ربع العبادات كتاب العلم.

(٢) (سورة التوبة: ١٢٢).

(٣) http://www.aljazeera.net/programs/religionandlife/٢٠٠٥/١١/٣٠/ فروض_الكفاية_ودورها_في_بناء_الأمة.

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد والحديث رواته ثقاة.

(٥) صحيح ابن حبان ج: ١٦ ص: ٨٤.

(٦) حذيفة بن اليمان صحابي جليل كان أمين سر رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وشهد معه المشاهد كلها عدا معركة بدر حيث كان الكفار قد قبضوا عليه ولم يطلقوه إلاّ بعد أن وعدهم بعدم الانضمام لمعركة بدر التي كانت علىٰ وشك الحصول، فلما وصل إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم أمره بأن يوفي بما وعد بعدم المشاركة بالمعركة. وقد اتخذه رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم كأمين سر وأعلمه بأسماء المنافقين. توفي سنة ٣٦ في المدائن. والحديث أعلاه في فتح القدير للشوكاني.

(٧) سورة الأحزاب الآية ١٣.

(٨) سورة الأحزاب الآية ٩.

(٩) معركة اليمامة: وقعت سنة ١١هـ في زمن أبي بكر الصديق وهي أكبر معركة مع المرتدين وقيها قتل عدد كبير من الصحابة من حفظة القرآن الكريم وكان قائد المعركة من المسلمين خالد بن الوليد وانتهت بمقتل مسيلمة الكذاب.

(١٠) رواه البخاري.

(١١) قال الحافظ ابن حجر: بإسنادٍ صحيح.

(١٢) الامام مالك بن أنس – صاحب المذهب المالكي في الفقه ولد سنة ٩٣هـ وتوفي سنة ١٧٩هـ..

(١٣) من علوم الحديث للحافظ ابن كثير.

(١٤) http://waqfeya.com/book.php?bid=٧٠٤٣

(١٥) https://archive.islamonline.net/?p=٩٤٣٣

(١٦) رواه ابن حبان في صحيحه – فيها بعض الاختصار.

(١٧) رواه البخاري عن أنس بن مالك.

(١٨) رواه أبو داود.

(١٩) رواه البخاري.

(٢٠) سورة غافر ٢٨-٤٥.

(٢١) سورة يوسف ٥٤.

(٢٢) سورة يوسف ٥٥ و ٥٦.

(٢٣) البداية والنهاية لابن كثير وهو صحيح على شرط الشيخين.

(٢٤) سورة الأحزاب الآية ٢٣.

(٢٥) الإصابة في تمييز الصحابة عن أبن إسحاق.

(٢٦) فضائل الصحابة لعبد الله بن أحمد بن حنبل.

(٢٧) رواه أبو يعلى – كما في «تفسير ابن كثير» عن مسروق.

(٢٨) سورة النساء ٢٠.

(٢٩) أخرجه أحمد والطيالسي والطبراني بسند صحيح.

(٣٠) غزوة تبوك: وقعت في رجب سنة ٩هـ وخرج فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نحو ٣٠ ألفًا من الصحابة لدفع جموع مرتقبة من الروم وحلفائهم. ولم تحدث فيها معركة بسبب تشتت قوى الروم تفاديًا للمعركة.

(٣١) سورة التوبة ١١٨.

(٣٢) رواه مسلم.

(٣٣) علي زين العابدين بن الحسين ﷺ، المعروف بالسجاد. ولد سنة ٣٨ هـ وكان مع أبيه الحسين حين قتل. كان تقيًا ورعًا. اعتزل الفتن، وتوفي سنة ٩٥هـ .

(٣٤) رواه أبو داود (بسند صالح) والترمذي وابن ماجة.

(٣٥) محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة. ولد سنة ٧٠٣هـ ورحل إلى أغلب بلاد المسلمين والهند والصين وسمي بأمير الرحالين. كتب كتابه المعروف رحلة ابن بطوطة وتوفي سنة ٧٧٩هـ .

(٣٦) http://albayan.co.uk/Article٢.aspx?id=١٦٢٦ .

(٣٧) رواه أبو داود والترمذي والطبراني.

(٣٨) عبد الله بن الزبير ﷺ، كان أول مولود من المسلمين في المدينة المنورة بعد الهجرة. ساهم في كثير من الفتوحات في زمن الخلفاء الراشدين. رفض البيعة ليزيد فجهز جيشًا للقبض عليه في مكة لكن وفاة يزيد أوقفت العملية بعد تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة، وبويع بالخلافة لعبد الله بن الزبير في مكة قبل أن يبايع لمروان بن الحكم في الشام. فكان هو الخليفة الشرعي. ولما توفي مروان بن الحكم بويع لعبد الملك في الشام فأرسل الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة لمحاربته، فقذف الكعبة بالمنجنيق وصلب عبد الله بن الزبير مبالغة في التشفي والإرهاب لغيره، وذلك سنة ٧٣هـ .

(٣٩) السيرة الحلبية صفحة ٢٨٥.

(٤٠) سورة الحج ٢٥.

(٤١) هو أبو عمرو عبد الرحمٰن بن عمرو الأوزاعي، نسبة إلى الأوزاع وهي قبيلة يمنية نزل أناس منها في قرية من قرىٰ دمشق عند باب الفراديس فسميت باسمهم. ولد سنة ٨٨هـ . تلقىٰ الحديث والفقه عن عطاء بن أبي رباح أحد أعلام التابعين، وقتادة وهو أحد أعلام المفسرين واللغويين، ومحمد بن شهاب الزهري أحد أئمة المدينة المنورة، ونافع بن عمر الذي أخذ الأوزاعي عنه علم عبد الله بن عمر ﷺ. كان إلى جانب علمه رجلاً زاهدًا ورعًا تقيًا كثير العبادة

قليل الكلام؛ كان إمامًا في الفقه لكن مذهبه انقرض. قال سفيان بن عيينة فيه: كان الأوزاعي إمام زمانه. توفي سنة ١٥٧ ودفن في بيروت.

(٤٢) متفق عليه.

(٤٣) البداية والنهاية لابن كثير.

(٤٤) سفيان الثوري ولد سنة ٩٧هـ من الفقهاء المجتهدين. بقي مذهبه يُتابَع حتى القرن السابع الهجري وقد عُرف بالزهد. رفض تولي القضاء. توفي سنة ١٦١هـ.

(٤٥) المسند لأحمد شاكر: الجزء الأول_ وفيات الأعيان ٢/ ٣٨٧.

(٤٦) أبو حنيفة النعمان بن ثابت ﷺ، ولد في الكوفة سنة ٨٠هـ . وهو أول الأئمة الأربعة صاحب المذهب الذي نسب إليه. اشتهر بعلمه الغزير وعبادته وورعه في عمله في التجارة. ورث علمه عن إبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان عن علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود ﷺ. تعرض للمحن في آخر الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية لرفضه تولي القضاء. توفي سنة ١٥٠هـ .

(٤٧) رواه الترمذي وأبو داود.

(٤٨) متفق عليه.

(٤٩) المنذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قاسم البلوطي، ولد في عام ٢٧٣ هـ في قرطبة من أسرة من البربر. تولى القضاء وكان شديد الصلابة في حكمه وأقضيته لا يخاف في الله لومة لائم. توفي سنة ٣٣٩هـ .

(٥٠) الشعراء ١٢٨-١٣٥.

(٥١) التوبة ١٠٩.

(٥٢) الزخرف ٣٣.

(٥٣) مقال بين خليفة وقاض في مجلة الأزهر لشهر رمضان ١٣٧١ للأستاذ عبد الحميد العبادي، وانظر الإسلام بين العلماء والحكام ٩٣.

(٥٤) الإمام أحمد بن حنبل ولد سنة ١٦٤هـ وهو صاحب رابع المذاهب الأربعة الذي ينسب إليه. جمع بين الزهد والإمامة في الفقه والإمامة في الحديث، فله المسند في الحديث. وقد تتلمذ على الإمام الشافعي الذي تتلمذ على كل من محمد بن الحسن تلميذ الإمام أبي حنيفة والإمام مالك. ابتلي بخلق القرآن فصمد. توفي عام ٢٤١هـ.

(٥٥) وفيات الأعيان لإبن خلكان.

(٥٦) عبد القادر الكيلاني – شيخ صوفي وفقيه حنبلي ولد سنة ٤٧٠هـ وتوفي في بغداد سنة ٥٦١هـ ، وإليه تنسب الطريقة القادرية. له مؤلفات عديدة في التزكية والفقه.

(٥٧) قلائد الجواهر ص٨.

(٥٨) محي الدين بن عربي أحد كبار مشايخ الصوفية اشتهر باسم الشيخ الأكبر. ولد في الأندلس عام ٥٥٨هـ وسافر إلى المشرق. له عشرات المؤلفات لكن بعضها فلسفي عصيّ على الفهم، لذلك لا ينصح بمطالعتها، وقد اتُهم بالقول بوحدة

الوجود، لكن سيرته وغالب مؤلفاته تشير إلى سعة علمه وتقواه واتباعه السنة.

وكان يتبع في الفقه مذهب ابن حزم الظاهري. توفي في دمشق عام ٦٣٨هـ.

(٥٩) الفتوحات المكية.

(٦٠) العز بن عبد السلام ولد سنة ٥٧٧هـ وتوفي سنة ٦٦٠هـ برع في الفقه والأصول والتفسير واللغة.

(٦١) كتاب العز بن عبد السلام للدكتور الزحيلي.

(٦٢) أق شمس الدين: محمد شمس الدين بن حمزة ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه. عالم عثماني بالفقه والنبات والطب والأدوية ويقال أنه أول من عرف الميكروبات. ولد في دمشق وكان معلمًا ومربيًا للسلطان محمد الفاتح. توفي عام ٨٦٣هـ / ١٤٥٩م.

(٦٣) محمد الفاتح: هو محمد بن السلطان مراد الثاني ولد سنة ١٤٢٩م تنازل له والده عن السلطنة وعمره ١٤ سنة، لكن والده عاد للحكم بسبب الحروب التي جابهت الدولة. ثم تسلم السلطنة بعد وفاة والده عام ١٤٥١م. جهز جيشا لفتح القسطنطينية ودخلها عام ١٤٥٣م. وقد قام بتوحيد الأناضول وقام بفتوحات كبيرة في أوربا منها فتح البوسنة واعتنى بالعلم والعلماء والعمران وكان مهتما بإقامة العدل.

(٦٤) رواه أحمد بن حنبل والبخاري في التاريخ الكبير والطبراني.

(٦٥) https://www.turkpress.co/node/٥٥٢٠٩.

(٦٦) سعيد النورسي رحمه الله ولد سنة ١٨٧٦م/ ١٢٩٤هـ، أظهر في طفولته وصباه قابلية غير عادية في الحفظ والذكاء ولذلك سمي بديع الزمان. ناظر العلماء وألقى الخطب وقدم المقترحات للدولة العثمانية دون جدوى. شارك في الحرب العالمية الأولى وأسر أثناءها وبقي في الأسر مدة. وفي أثناء احتلال تركيا بعد انتهاء الحرب شارك في مقاومة الاحتلال بقلمه ولسانه ثم أبدى الكثير من الجهد للنصح والخير للسياسيين بعد سقوط الدولة العثمانية، لكنه وجد ذلك غير مجد، فترك كل ذلك، وأدرك أن الأمة تحتاج إلى حفظ الإيمان. فاعتزل الناس منذ عام ١٩٢٦م وعكف على كتابة رسائل النور وسمى نفسه أثناءها سعيد الجديد. لم يسلم خلال هذه الفترة من مضايقة السلطات والإعتقالات والملاحقات. لكن جهوده بدأت تثمر تدريجيا بانضمام العديد من طلبته لنشر رسائل النور والتخلق بما تدعو إليه من أخلاق ويقين. توفي رحمه الله عام ١٩٦٠م.

(٦٧) إحسان الصالحي: نظرة عامة عن حياة سعيد النورسي – صفحة ٤٥.

(٦٨) سورة النور الآية ٣٢.

(٦٩) سورة الأنفال الآية ٦٠.

(٧٠) الشيخ محمد النبهان ولد في ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م عاش في حلب وجمع بين العلم والزهد واتباع السنة والتصوف. شهد له بالتقوى والعلم كل من التقى به من العلماء منهم أبو الحسن الندوي من الهند ومالك بن نبي وأمجد الزهاوي. توفي

رحمه الله عام ١٩٧٤. ومن أتباعه الشيخ ناظم العاصي العبيدي، من مشايخ عشيرة العبيد في العراق، الذي اشتهر في التوسط لإيقاف القتال بين الأكراد بقيادة الملا مصطفىٰ البرزاني والحكومة العراقية في زمن الرئيس العراقي عبدالرحمن عارف، مما نتج عن الوساطة وقف القتال. وكان شجاعًا، لا يخاف في الله لومة لائم. توفي رحمه الله عام ١٩٨٣م.

(٧١) النجاشي هو أصخمة بن أبجر ملك الحبشة. استقبل الصحابة المهاجرين من مكة وأحسن ضيافتهم بين عامي ٦١٠- ٦٢٢م. توفي في حياة الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم وصلىٰ عليه صلاة الغائب.

(٧٢) منهم ابن عثيمين رحمه الله.

(٧٣) رواه البخاري.

(٧٤) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٧٥) رواه مسلم عن جرير بن عبدالله.

(٧٦) رواه البخاري.

(٧٧) عن يزيد بن مرثد، قال الساجي: رأيت أبا داود أدخل هذا الحديث في كتاب «السنن» ولا أراه ذكره إلاّ وهو عنده صحيح.

(٧٨) رواه أبو داود.

المحتويات

الموضوعات **الصفحة**

المقدمة ٥
الباب الأول: تعريف فرض الكفاية.....٧
الباب الثاني: القيام بفرض الكفاية بتكليف من ولي الأمر.....١١
الباب الثالث: القيام بفرض كفاية باختيار الجماعة.....٢١
الباب الرابع: القيام بفرض الكفاية بتطوع من فرد "مؤمن آل فرعون".....٢٥
الباب الخامس: قيام العلماء بفروض الكفاية ٣٩
الباب السادس: فروض كفاية أخرىٰ وملحقاتها من السنن أو المندوبات ٥٣
المصادر.....٧٣